روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر



دار الأندلس

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر



الجزء الثاني

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

ودع طارق حبيبته ، ووعدها بأنه سيمزق باهتمامه وسعيه ، ذلك الحجاب الذي سدلته الاقدار على ذلك السر . وكانت ساعة التوديع ، ساعة مؤلمة ، خرجت فيها اليتيمة عن هدوئها واستسلمت الى البكاء استسلاماً جاوز الحد . ثم رأت ان هذا الضعف يكاد يفضحها ، وقد يمنعها من المضي في الامر الخطير الذي فكرت فيه .

فتجلدت ، وسألته ان ينصرف وهي تتمتم قائلة : اذكر هذه . . الساعة ايها . . الحبيب ولا . . تنس .

وكانت قوى الفتى قد خارت ، فمشى متثاقلاً وهو يلتفت الى الوراء حتى حجبت الجدر يتيمته عن عينيه . ولم يفكر عندئذ في مغزى تلك الكلمة الأخيرة التي قالتها له .

بلى ، كان يقول في نفسه : لقد سألتني ان اذكر ساعة التوديع لأتعجل في الرجوع . ولم يعلم ان لكلمتها مغزى آخر هو أبعد مما خطر له .

وكان سنان يومئذ في مرو ، فدعته اليها قائلة : الحق بطارق حتى يخرج من المدينة .

– وبعد ذلك ؟

– ترجع اليّ فانا بحاجة اليك .

فسار الرجل ، ثم عاد بعد ساعة وهو يقول : خرج طارق راكباً ووراءه اربعة من الفرسان .

قالت : اجلس واخفض صوتك اذا تكلمت !

فجلس وهو ينظر اليها نظرات الاستغراب .

ثم جلست هي بالقرب منه وجعلت تقول :

لا تستغرب ما تسمع فانا قد عولت على الرحيل من هذا البلد ، الى مكان آخر بعيد لا تقع علي فيه العيون !

فذعر قائلاً : انت يا مولاتي ؟

– نعم انا ! وأرجو أن تتهيأ للرحيل في الهزيع الثاني من هذا الليل .
– ولكن ألا تذكرين لي سبب رحيلك ؟
– اذكر لك سبباً واحداً هو ان غيبة أبي عن مرو خلقت الظنون في صدر الاحنف وصدر عبدالله ..
– واي شأن لك بهذا ؟
فهزت رأسها قائلة : شأني انهم يتهمون مولاك ..
– بماذا ؟
– بأنه من انصار يزدجرد الذين يخونون المسلمين !
– ومن قال لك ذلك ؟
فترددت قليلاً ثم قالت : الاحنف نفسه ..
– ليقل مـــا يشاء فليس في الأمر ما يدعو الى الخروج من مرو كما يخرج المجرمون .
قالت : لا تحدثني بمثل هذا فأنا قد عولت على الرحيل وانتهى الامر .
– واذا عاد مولاي غداً ؟
– نعود عندئذ الى مرو ويرفع أبي رأسه قائلاً : كنت ولم أزل من المخلصين للاسلام ..
– وان لم يعد ؟
– احمل شقائي العمر كله، ثم اموت دون ان يحزن علي نسيب او يشعر بي أحد !
– ولكن طارقاً لا يرضى بهذا وقد ينتهي به الأمر الى الموت .
– لقد ذهب الآن وسيرجع الى مرو بعد بضعة عشر يوماً فلا يرى منا أحداً ولا يعرف البلد الذي لجأنا اليه .
قال : بعثه الاحنف في مهمة ؟
– بل بعثت به انا ليبحث عن ابي في النواحي التي نزل فيها الملك قبل موته .
– فعلت ذلك يا مولاي ليخلو لك الجو ؟
– نعم ولو كان طارقاً هنا لما استطعت ان انقل من مرو قدماً .

قال : انصح لك بان تبقي ريثما نتبين الأمر .

– اقسمت اني لا امكث بمرو يوماً واحداً بعد خروج طارق وسأبر في قسمي .

اذهب وتهيأ كما قلت لك .

قال : اخشى ان يقتلك هذا الرجل ويقتل طارقاً . .

– لا خير في الحياة مع ذل التهمة . .

– يكفي ان يكون طارقاً مؤمناً بوفاء مولاي ووفاء ابنته .

– اما انا فلا اطيق ان ينظر اليّ الاحنف بن قيس واخوه عبد الله ، نظرة الاستخفاف والازدراء وأنا اشد منهما إخلاصاً .

– وكيف نرحل ونحن لا نملك شيئاً من المال .

فابتسمت قائلة : المال كثير ، وهو في منزلنا على الشاطىء ، وسنحمله الى حيث تدفعنا الاقدار .

– وترحل غمرة معنا ؟

– نعم فأنا لا اتخلى عن المرأة التي أحسنت اليّ .

– والعبدان ، وذلك الفارسي الذي يدعى طرخان ؟

– اما العبدان فهما منا ونحن لا نتركهما ، واما الضيف الفارسي فسنجود عليه ببعض مالنا وليذهب الى حيث يشاء .

– بقي ان ننظر في امر البلد الذي نسير اليه .

– الرأي في ذلك لك فانا لا اعلم الى اين نمضي .. ثم قات : اين يقيم قومك بنو سليم ؟

– بنو سليم فروع ثلاثة ، احدها في اطراف البصرة ، من ناحية الخليج والثاني يقيم بالبادية التي يقال لها بادية الكوفة ، والآخر على شاطىء الفرات الذي يجاور الحيرة وكل واحد منها له منزلته في القوم .

– واي فرع اكثر بعداً ؟

– ذلك الذي ينزل على الخليج .

– اذن فالرأي ان ننضم اليه .

قال : كنت فقيراً في قومي ولا ولد لي ، فاذا رأوني غداً ومعي فتاة تخلب ألباب الفتيان ، وعبدان يقومان بالخدمة دب الريب في الصدور .

فأطرقت ملياً ثم قالت :

سألبس في هذا الليل ثياب الفتيان ولا اخلعها الا بعد ان يجتمع الشمل او يخيب الرجاء . . وارسل ضفائري على كتفيّ كما يرسلها شباب العرب ، فيظن الناس عندئذ اني فتى فتاة !

– واذا سألوني عن هذا الفتى الذي يرون ؟

– تقول لهم انه ابن مولاك الفارسي ، الذي اعتنق الاسلام قبل ان يموت في حرب خراسان والعبدان ملك له .

– ولكن لا تنسى ان هنالك أمراً يفضح السر الذي نكتمهم إياه .

– وما هو هذا الامر ؟

– هو ان فتيان العرب جميعهم فتيان حرب وانت لا تحسنين حمل السيف بل لا تستطيعين ان تحمليه . .

– تقول لقومك ان ابي لا يعلمني فن القتال ، وتختـــار عندئذ رجلاً منهم يعلمني اياه ، وانا ارغب في ذلك !

– واذا استعرت نار الحرب بعد ذلك وندب لها بنو سليم ؟

– احمل سيفي واخرج معهم لأجرب الفن الذي تعلمت !

– اذن لنبدأ منذ الان بما ترين . . ما اسمك يا مولاي ؟

– ربيعة .

– واسم ابيك ؟

– شروان الفارسي !

– وفي اي بلد قتل ؟

– في نيسابور ولا تنس انه كان من عظماء القوم . . وقد دخل في الاسلام قبل ان اخرج الى الوجود ! أفهمت الان ؟

– نعم وسأنقل الى غمرة والعبدين ما سمعت لكي يحفظوه . . ولكن ارجو بعد كل هذا ان تعدلي عن الرحيل . .

واومأت اليه بالانصراف وهي تقول : عندما نمسي في الهزيع الثاني من الليل نترك مرو .. اسمع ما اقوله لك ولا تتردد في الطاعة.

وعمدت عندئذ الى جراب لها فاخرجت منه قطعة مستطيلة من العاج ، وكتبت الى طارق سطوراً قليلة ، املاها عليها الشقاء في الحب . .

ثم جعلتها داخل قطعة من الديباج ودفعتها الى جاريتها قائلة : تسلمينها الى طارق بن عبد الله عندما يعود واحذري ان يراها احد قبل رجوعه . .

وانصرفت الى حجرة ام عامر ، وجعلت تذكر لها احسانها ، وتحلف لها انها لن تنسى الجميل والعناية اللذين احاطتها بهما . وام عامر لا تفهم مني ذلك الاعتراف ، ولا يخطر لها ان معناه القيام بواجب التوديع . .

* * *

- ٦٠ -

لم يذرف خراذمهر ، صاحب جبل الزهاد ، دمعة على يزدجرد ولم يشعر بذلك الحزن الذي يشعر به العبد الامين بعد موت سيده . إن يزدجرد اساء اليه والى رفاقه القواد ، باستسلامه الى رأي اعدائه ، واستخفافه باراء المخلصين له . . وكانت عاقبة ذلك الاستخفاف ، الموت خنقاً كما رأيت . وقد عول صاحب الجبل ، على قضاء عمره في جبله، راضياً بما قسمت له الاقدار ، من عيش رغيد ، وحياة هادئة .

وفي اي شيء يطمع بعد ان رأى ما رآه ؟ أفي استرجاع العرش وقد قتل يزدجرد، ام فيطود العرب، وحصون فارس لم يبقغير انقاضها، وجيش الفرس مهدم وسيفه مفلول ؟ !

واي فتى ترفعه فارس الى عرشها وتعصب جبينه بتاج ملوكها ، وليس في سلالة كسرى من يصلح للامر، بل ليس فيها من يجسر على الظهور. خير للامراء

الذين أبقت عليهم الحروب في بلاد الفرس، ان يرضوا بحكم الفاتح العربي، ويلجأوا الى الطاعة التي لا تردد فيها ولا رياء . ذلك مـا كان خراذمهر يفكر فيه ، بل كان يفكر، في ان يلقي سيفه عند قدمي عامل المروين الظافر، ويظهر له خضوعه بنبالة وشرف ، ثم يعود الى جبله ليعيش مطمئناً في ظل ذلك الخضوع . وبينا هو يهم بالذهاب ليمثل بين يدي الاحنف ، بلغه ان سنجان قد قتل ، وان الاحنف لا يطيب له ان يبقي على الامراء الذين كانوا أنصاراً ليزدجرد ، والذين رافقوه، والسيوف في الأيدي، الى مرو الشاهجان . فقال في نفسه : الصبر خير من التعجل في الامر .

وقد خاف ان ينتهي به مثوله بين يدي الفاتح ، الى الهلاك .

ثم ذكر برسي اسير سنجان ، ذلك الخصي المسكين الذي وضعه في قفص كما يوضع الحيوان ، وطاب له ان يدعوه اليه وينظر في أمر خيانته التي وصفها له سنجان وهو في الجيش . فأمر غلمانه بأن يحملوه اليه ، ففعلوا ، وبرسي لا يعلم شيئاً من أمر سنجان وامر الملك . وكان يسأل حراسه عمـا انتهى اليه امر يزدجر، ولكنه لم يسمع لسؤاله جواباً، فقد منع خراذمهر الحراس من ان يقولوا له كلمة .

فلما حمل الى قاعة الجلوس ، في الحصن ، رأى خراذمهر رجلاً واهي القوى، وقـد رثّ الثوب الذي يلبسه حتى كاد يبلى . فقال لمن حوله : أليس في جبل الزهاد ثوب تعطونه إياه ؟

فاجابه برسي قائلاً : لا ينزع هذا الثوب وأنا حي !

– ولكن يد البلى ستنزعه على رغمك .

– خير لي ان يسلبني البلى إياه من ان تمتد اليه يد بشري !

قال : يظهر ان لهذا الثوب سراً لا تبوح به لأحد .

– بل أبوح به لكل الناس .. انه الثوب الذي يغذي حقدي على يزدجرد الذي ألبسني إياه ..

قال : يجب ان يموت حقدك فيزدجرد قد مات .

قال: اتهزأ بي ياخراذمهر وقد كنت في البلاط اعظم شأناً منك ومن رفاقك؟
– وهـل يقوم في ذهنك اني اهزأ بمثل هذا ؟ أفلا ترى اني رجعت من مرو وأقمت بهذا الحصن على ان لا اخرج منه بعد موت الملك ؟
فجعل ينظر الى من حوله ثم قال : اتقسم لي ؟
– اجل !
– وهل مات حتف أنفه ؟
– بل مات خنقاً بوتر وحمل ماء المرغاب جثته الى فوهة الزريق .
فتنهد قائلاً : لقد سلمت فارس فالحمد لله ..
قال : أعطوه ثوباً يلبسه في هذا العيد ..
قال : نعم ان موت الملك عيد في نظر رجاله المظلومين الذين جعل أقفاص الحديد منازل لهم .. أين هو الثوب ؟
فحملوه اليه فقال : دلوني على موضع أخلع فيه هذا .

فتقدمه حارسه الى حجرة تجاور قاعة المجلس ثم دفعه اليها ، وأغلق بابهـــا وجعل ينظر من ثقب فيه ، الى الداخل . فلمـا لبس برسي ثوبه الجديد . وضع الرق في حزامه كما كان ، والحارس يراه ، ثم خرج قائلاً : اجعلوا ثوبي البالي أثراً خالداً من آثار يزدجرد . ورجع الى القاعة وهو يبتسم ابتسامة الظفر .
فقال خراذمهر : والآن فاني اسألك .. قال : هات !
– في أي شيء استحققت هذا الجزاء من الملك ؟
– وكيف تسألني عن امر تعرفه انت كما يعرفه سواك ؟
– كان سنجان يقول انك من الخونة وانا لا أعلم بماذا .
– وأين هو سنجان اليوم ؟
– قتله عامل المروين في ساحة مرو الروذ .
فبرقت عيناه قائلاً : اذن فقد انتهى الامر وظفر المسلمون .
ثم رفع رأسه وجعل يقول : أأسير انا ام حرّ ؟
– انك أسير الآن وقد تمسي حراً .
قال : أنصح لك بأن تصالح المسلمين وتخضع لهم .

– وأي شأن لك بهذا وأنا لا احدثك به ؟
– لي من وراء ذلك غايتان : احداهما اني لا اريد ان تخسر حياتك .
– والغاية الأخرى ؟
– اما الاخرى فهي اني مسلم ، فاذا خطر لك بعد ان استقام الامر بالإسلام أن تسيء اليّ ، كان جزاؤك جزاء سنجان نفسه ..

فدهش القائد وقال : مسلم ... ! وقد كنت خصياً من خصيان البلاط الفارسي ؟!

– اجل ، ولولا اسلامي لما جعلني يزدجرد وسنجان اسيراً في قفص .
قال : خرجت من وادي خواست رسولاً اميناً ليزدجرد ..
– ولكني رجعت وانا مؤمن بالله الذي لا إله إلا هو ..

وقصّ عليه عندئذ حكاية اسلامه ولم يبح له بسر الرسالة التي حملها من شهريار إلى ابنته .
قال : وكان شهريار مسلماً ؟
– نعم واني لأعجب لأمر ..
– ما هو ؟
– هو انك كنت من انصار الملك وكان الملك يبوح بأسراره لاولئك الانصار .

قال : أخبرنا الملك أن شهريار كان خائناً كما كنت انت ولم يذكر لنا شيئاً آخر . انه كان يكره ان يتحدث بالاسلام ، وهو بين قواده ، ولم يكن من رأيه على ما يظهر أن يقول للناس ان خصيانه يتركون دين آبائهم ليعتنقوا دين العرب الفاتحين .

قال : لقد عرفت الآن ما لم تعرفه بالامس فماذا ترى ؟
– ارى ان تحدثنا بأمر الرسالة التي اعطاك اياها يزدجرد .
– انها رسالة دفعها الي شهريار ، بأمر يزدجرد ، لأحملها الى ابنته وهذا كل ما أعلم فلا تسألني عن شيء آخر .

– أتعرف الاحنف ؟
– لا أعرف من امراء العرب غير زياد المازني نائب الاحنف في مرو .
– وماذا تصنع يا برسي اذا جعلناك حراً ؟

– اخرج من هذا الجبل الى مرو الشاهجان ، ثم انتقل منها الى مرو الروذ حاملاً الى امرائها خبر موت شهريار ، ثم انصرف بعد ذلك الى حيث لا اعلم .

– وهــل تظن ان الاحنف لم يخبر القوم بمقتل شهريار ، قبل ان يحكموا عليه بالموت ؟

– هب انه فعل ذلك فلا بد لي من الذهاب .
فقال الحارس : يظهر ان معه شيئاً يحمله الى القوم .
– وماذا يحمل اليهم وهو لا يملك غير ثوبه ؟
– رأيت ذلك الشيء في يده يا مولاي ثم خيل الي انه يضعه في حزامه .
– ماذا تحمل يا برسي ؟
فآثر الرجل الاعتراف بالرضى،على ان ينتزعوا ما يحمله بقوة الرجال، فقال:
احمل وصية شهريار التي كتبها في خيمة يزدجرد .
– وتسلمها الى ابنته التي ذكرت ؟
– اسلمها الى الاحنف نفسه .
– وهل قرأتها انت ؟
– ليس لي ان اقرأها فقد امرني المسكين قبل موته بأن لا افعل .
– واذا امرناك ان تسلمها الينا ؟
– لا تؤخذ الوصية مني الا اذا قتلت !

فاطرق خراذمهر قليلاً ثم قال : اما نحن فلا نريد ان نأخذها بالقوة .. انها لك وستدفعها الى من تشاء بعد خروجك من جبل الزهاد .

ثم قال لرجاله : اجعلوا برسي في احدى حجرات الحصن فهو ضيفنا ..
قال أرجو من الامير ان يأذن لي في الانصراف فذلك خيرٌ لي .
– بل تبقى الآن فقد يكون الامير رفيقاً لك الى مرو الروذ .

قال : انك تمزح، فالقوم أعداؤك وانت لا تريد ان تزور الاعداء .
– لقد كانوا اعداءنا والملك حي ، اما الآن فلم يبق الا أن نخضع حقناً لدماء اهل فارس .. انصرف الآن وسندعوك في وقت آخر .

فمشى وراء حارسه وهو يقول: اشكر لك يا خراذمهر هذا الاحسان وسترى اني لا انساه ..

فقال القائد لمن حوله : ليس من الرأي ان نغضب برسي ، فهو اذا غضب غضبت العرب !

فأجابه احد رجاله قائلاً : كان عليك ان تقرأ وصيته فقد يكون ما نكره.
فانتهره قائلاً : وماذا تفعل اذا كان في الوصية مـا تكرهه فارس ؟ اتحمل سيفك لتدافع عن قومك وقد رأيت ما رأيت ؟ ان الرأي أن نضع ايدينا في يد الفاتح فقد انتهى امر فارس اليوم . وقـــام فخرج ليرى بعينيه حجرة ضيفه الجديد ... ويمهد له سبل الراحة في ذلك الحصن .. والحكمة وحدهـا هي التي أملت عليه ان يفعل ما فعل .

* * *

– ٦١ –

ذعر ماهويه عندما بلغه ان طارقـاً ابن عبدالله انتهى الى قصر الامارة وهو يسأل عنه وكان طارقاً يريد ان يتعجل في امره ، ليعود الى مرو الروذ ويرى حبيبته التي جارت عليها الاقدار وهي في ظله . فلما ابصر ماهويه قال له : لي حاجة أتيت لأسألك قضاءها باسم الاحنف ..

قال : الاحنف يأمر ولا يسأل .. اذكر حاجتك أيها الامير .
قال : أعرفت جميع الرجال الذين كانوا أركاناً لحرب يزدجرد يوم قدم مرو؟
– أجل ، واني لأعدهم الآن دون ان أنسى احداً ..
– وكان شهريار معهم ؟

– لو كان معهم لذكرت ذلك لعمك يوم أمر بقتل سنجان .. ألم ينقل اليك الناس خبراً عنه ؟

– لم نسمع شيئاً فكأن شهريار لم يكن في الوجود .

قال أخشى ان يصدق القول الذي قلته لكم وانا في مرو .

– لقد نسيت ما قلت .

– خيل الي في ذلك اليوم ان يزدجرد قتل شهريار وبرسي بسعاية سنجان نفسه .

– لقد ذكرت الآن ولكن لا اظن انه قتلها ..

– وماذا تريد الآن ؟

– اريد ان اعرف مقر شهريار وارجو ان تعلم اني لا اعود الى مرو الا اذا عرفت ذلك !

فوضع يده على جبينه ثم قـــال : ومن يعلم مقر الرجل بعد هذه الغيبة التي طالت أيامها ؟

قال : يعرفه اولئك القواد الذين رافقوا الملك ثم أمرهم بطلب منك ..

فاشرق جبينه قائلاً : أصبت فهؤلاء يعلمون ما لا نعلم ... وجعل يعدّهم واحداً واحداً ويقول : فرخزاذ . قائد الرهائن .. وهذا في ديار قومه في اقصى خراسان فلا نستطيع الوصول اليه الا بعد شهر ... وسنجان قد مات ولا خير فيه ولو كان حياً ... ولكن بقي خراذمهر .. وهذا يقيم بجبل الزهاد والجبل قريب من مرو ... نعم خراذمهر .. انه يطلعنا على كل شيء اذا اراد .. أتريد ان تذهب الى الجبل لتراه ؟

– بل اذهب الى اقاصي الهند والصين اذا كان في ذلك بلوغ الغاية .

– ولكن الرجل من أتباع الملك وقد يؤثر الموت على ان يبوح بما يعلم .

قال : أتراه يستطيع ان يشهر الحرب من اجل ملكه الذي قتل ؟

– قد لا يستطيع ذلك فرجاله لا يجاوزون الالف ، ولكن الاخلاص يفعل العجائب فهو اذا اراد ان يكتمنا سر شهريار كتمنا إياه ولو خسر حياته .

– وهل تظن انه رأى شهريار عند يزدجرد ؟

– بل انا واثق بهذا لأن شهريار كان في وادي خواست كما قال برسي ، وخراذمهر لم يفارق الملك الا في مرو .

– اذن نسير غداً ويفعل الله ما يشاء .

– وتتبعنا قطعة من الجيش الى الجبل ؟

– لا يتبعنا غير رجالي الاربعة القائمين الآن بالرواق .

– وكيف تدخل ارض عدوك وليس حولك من يدافع عنك .

– لم يبق بعد مقتل الملك ارض يسمونها ارض العدو !! ان بلاد فارس كلها للفاتح واذا طاب لخراذمهر ان يخرج من جديد عن الطاعة ، ملأنا جبله رجالاً وعلمناه بقوة السيف ، ان يطيع ..

قال : لم يبق اذن ، الا ان نضرب موعداً لجيش مرو .

فسأله طارق عن ذلك الموعد فقال : ستسمع الآن كل شيء . ونادى حاجبه قائلاً : علي ببراز .

فأقبل ولده براز ، فقال له : سنترك مرو غداً الى جبل الزهاد ، فاذا مرت عشرة ايام ولم نرجع فابعث بالجيش كله الى ذلك الحقل وكن أنت على رأسه أفهمت ؟

– فهمت كل شيء يا مولاي .

فقال طارق: احسنت فتلك هي حكمة القواد وبات القوم ليلتهم، ثم خرجوا عند الصباح يريدون الجبل القائم في منتهى الافق ، وكان قلب طارق مضطرباً وهو يحدثه بان القدر سيكون عدواً له ..

وكان خراذمهر يجالس برسي كل يوم ، ويعده بان يرافقه الى مرو بعد ان تمر الايام وينسى الاحنف يزدجرد . وبرسي يلح في طلب الذهاب ، وقد ضمن له رضى الاحنف وسكوته عما مضى حتى كان اليوم الذي اقبل فيه طارق وماهويه صاحب مرو الشاهجان ، احد الرجلين اللذين يستأذنان في الدخول .

فخف لاستقباله وهو يهش له ولرفيقه، وقام في ذهنه انه رسول الاحنف وهو لم يجيء الا لأمر .

والرجل يتفرس في طارق وقد ايقن بأنه من امراء العرب .
رأى بدهائه ، ان يبدأ بذكر الماضي ، ليفاجىء الاثنين بأخبار خضوعه بعد موت الملك ، قبل ان يحدثاه بأمر الخضوع .

فقال : كنا ايها الامير منذ زمن قليل عدوين احدنا يناصر العرب والآخر يناصر يزدجرد .. !
فقال ماهويه : والآن ؟
– اما الآن فقد اضمحلت هذه العداوة وقام مقامها ولاء لا يزول بزوال العمر
فنظر صاحب مرو الى طارق قائلاً : اسمعت ايها الامير .. ان خراذمهر الذي كان قائداً من قواد الملك يسبق الناس جميعهم الى الطاعة ؟!

وقال لخراذمهر : انه طارق ابن الامير عبدالله شقيق الاحنف بن قيس والي المروين ، وسيد الميادين .

فانحنى الرجل وتمتم قائلاً : لم اعرف الاحنف ولكني سمعت انه اعظم الامراء هيبة في خراسان وأبعدهم اثراً .. ثم قال : ما هي الغاية من مجيء الامير طارق الى جبل الزهاد ؟

– امره عمه بأن يطوف في البلاد ويتبين عن كثب خضوع الامراء الذين كانوا من رجال يزدجرد !

قال : انا اول من يظهر الطاعة للعرب ، وكنت أهم بالذهاب الى مرو لأمثل بين يدي اميرها ، مع خصي غضب عليه يزدجرد قبل موته وأمر به فجعل في قفص من حديد .
فارتجفت شفتا طارق وقال : وماذا يدعى هذا الخصي ؟
– برسي .
فقال ماهوية : لقد عهد الاحنف الى ابن اخيه في البحث عن برسي الذي ذكرت فأين هو ؟
– في هذا الحصن .. ادعُ برسي ايها الغلام .
فخرج الحاجب ولم يلبث حتى عاد وبرسي معه ، فقال خراذمهر : هذا

صاحب مرو الاولى ، وهـذا طارق ابن اخي عامل المروين وهما يسألان عنك فهل تعرفها ؟

فدمعت عينـاه وجعل يقول لطارق : لا .. لا اعرف احداً ولكني عولت على المسير الى مرو مع خراذمهر لانقل اليكم ما اعلمه عن شهريار . وجلس وهو يمسح دموعه ، فقال طارق : وماذا تعلم عن شهريار ؟

– اعلم اشياء يعلمها هذا مثلي .. واومأ الى خراذمهر .

– واين تركته ؟

– في وادي خواست ولكني لا اعرف الموضع الذي جعلوا جثته فيه ..

فتراجع قائلاً : قتلوه في ذلك الوادي ؟

– اجل، قتله يزدجرد وسنجان لانه مسلم، ووضعت السلاسل في عنق برسي الذي يخاطبك الآن ، منذ ذلك الحين .

فجعل يقول : هذه اكاذيب سنجان تظهر الان .. فليعلمهـا عمي الاحنف، وأبي عبد الله :

وهل شهدت مقتل الرجل ؟

– نعم ورأيت دمه يجري في خيمة الملك ، وقد غاصت فيه قدما يزدجرد واقدام الرجال الذين مزقت سيوفهم جسده . . واخذ يصف لهم مشهد القتل كما جرى ، وهم يصغون اليه ، وعينا طارق تملأهما الدموع وكان يقول في نفسه : يكفي ان يعلم الاحنف ان شهريار الذي كان خائناً في نظره ، بذل نفسه في سبيل شرفه ووفائه .

وكان ماهويه ساكتاً ، فلما رأى دموعه قال : حسب الامير اني قتلت قاتل شهريار كما يقتل المجرمون الجبناء ؛ على ان طارقاً لم يجب فقد كان يفكر في أمر آخر، هو امر اليتيمة التي زعم سنجان انها ابنة شهريار ، من خليلته زوجة ذاك الخادم الفارسي .

وشهريار قد مات ، فلم يبق في الوجود ، من يستطيع ان يطلع الاحنف ، على سر الفتاة المنكودة الحظ . واي رجل ، بعد موت ابيها ، وموت سنجان يستطيع ان يثبت للقوم انها ليست ابنة زانية ؟ وهل يتزوج سيد فتيان بني

لهم ؟ فتاة تجعل العشيرة نسبها مضغة في الافواه ، ويتحدث بزنى والدتهـــا كل عربي؟ ! ان موت شهريار، كان اشد وقعاً على الفتى العاشق ، من حكاية سنجان التي مزقت فؤاده وأرسلت الريب الى صدره .

وبينا هو ذاهل ، خطر لخراذمهر ان يسأل برسي عن الوصية فقال : لم تقل للامير كلمة عن الكتاب الذي تحمله الى الاحنف ، فصحا الفتى من ذهوله وقال:

تحمل كتاباً الى عمي ؟

– أجل وهو الكتاب الذي سلمه اليّ شهريار قبل موته .

فلمع البشر في عينيه وصاح قائلاً :

الحمد الله ، ان في هذا الكتاب مفتاح السر ورحم الله شهريار، فهو لم ينس شيئاً .. ومتى كتبه ؟

– كنا نتحدث بامر الاسلام ، بعد رجوعي من مرو ، ونحن في خيمة الملك، وكان سنجان في خيمة قريبة وقد سمع كل شيء ، ثم رآه شهريار خارجاً منهـــا فأيقن بأنه سينقل ما سمعه الى يزدجرد وليس بعد ذلك غير الموت ..

– وكتبه عندئذ ؟

– نعم كتبه ويده ترتجف ، وكان ينظر الى الباب كأنه يرى الموت حتى انتهى منه ودخل الملك ، وذلك الساعي اللعين وراءه ، ثم حدث القتل .

– واين وضعت كتابه ؟

– هو في حزامي لم اغفل عنه لحظة واحدة .

قال : اعطني اياه فأنا ابن أخي الاحنف .

– لا والله لا اسلمه الا الى الاحنف نفسه ، فاذا هلك فالى عبد الله اخيه ثم اليك انت ، ثم الى الفتاة ابنة شهريار .

– يظهر ان شهريار نفسه امرك بذلك .

– نعم وقد كتب هذه الاسماء جميعها كي لا انسى اسماً .

قال : اقرأ وصية الرجل واقسم لك اني اكتم ابي وعمي مـــا قرأت ، ولا ابوح به لأحد من الناس .

– ومع ذلك فانا لا استطيع ان افعل .

فلم يرَ الفتى ان ينتزع الوصية انتزاعاً ويقابل وفاء الرجل بالشدة وهو العربي الذي كان الوفاء ولم يزل من شيمته وشيمة قومه ، كما انه كان يخشى ان ينصرف برسي الى مرو فيرى الاحنف في وصية شهريار ما يثبت اقوال سنجان وهناك البلية التي ليس لها دواء . . فأخفى وجهه بين يديه وغاص في لجة التفكير . .

ثم رفع رأسه قائلاً :

ألم يقل شهريار للملك كلمة قبل موته ؟

– بلى ، قال كلاماً لم يقل مثله ليزدجرد احد من قبل .

– وهل تذكر شيئاً منه ؟

– اذكر انه اعاد عليه حكاية حادثة جرت بينهما وكان يقول له : « اذكر يا يزدجرد ان القائد ابان زرد ، الذي قتل في القادسية وهو يدافع عن عرشك ، اوصاني بان اجعل ابنته جهان روز زوجة لي ، وقد طلبت اليك وهي في بلاطك ان تزفها اليّ فلم ترض وليتك وقفت عند هذا الحد » .

– ثم ماذا ؟

– وكان يقول : « واذكر انك طردتني يومئذ من البلاط كما يطرد السائل الوقح واحتفظت بالفتاة لنفسك ، ثم جعلتها حظية لك لتنتهك حرمتها ثم لتقذف بها بعد ذلك الى القبر » .

انها كلمة لا انساها لفظها شهريار وهو يرتجف ولو استطاع في تلك الساعة ان يقبض على عنق الملك لخنقه ولم يبال بالسيوف التي تلمع فوق رأسه ، ويلمع على شفارها الموت .. وكان طارق قد حبس انفاسه ليسمع كل شيء ، فقال : وبعد ذلك يا برسي ؟

– مشى شهريار بعد ذلك حتى دانى يزدجرد وقال :

« اما وقد حكمت عليّ بالموت ايها الظالم فاعلم اني اموت وانا مسلم ، وانك لا تستطيع ان ترى اليتيمة المنكودة الحظ بعد موتي ، وان الحكم الذي لفظته شفتاك الان سيعقبه موتك ايها الغدار » .

تخطفته السيوف عندئذ وملأ دمه واشلاؤه خيمة يزدجرد ثم جاء دوري

فخطر له ان يعذبني الى الابد ليعلم خصيانه وقواده الخضوع لملكهم والاخلاص له ..

فايقن طارق في تلك اللحظة بأنه ليس في الوصية مـــا يخافه قال له : تهيأ للذهاب غداً الى مرو فالاحنف يريد ان يراك .

فقال خراذمهر : وانا اذهب لأظهر خضوعي وأسأل والي المروين ان يجعل احد عماله في جبل الزهاد .

قال : ستكون انت عامله عليه ذهبت أم بقيت .

— ولكني اريد ان اسمع ما جاء في الوصية !!

— لمــاذا ؟

— لانه قد يكون فيها ما يتعلق بي ...

فنظر اليه مستغرباً وقال : واي شأن لك بما كتبه شهريار وانت لا تعرفه ؟

— يخيل اليّ اني عرفته من قبل ... وابان زرد قتيــل القادسيّة الذي ذكر برسي اسمه الان هو اخي !!

— وكيف كنت من انصار الملك وهو الذي انتهك حرمة اخيك وجعل ابنته بالقوة بين حظاياه ؟ !

— تركت الحرب بعد موت اخوي رستم وابان زرد ولجأت الى هذا الجبل ولم أعلم شيئاً مما ذكره برسي الساعة .

— ولو عرفت ذلك من قبل لما كنت عوناً للملك .

قال : لو عرفته لأغمدت خنجرى في صدر ذلك اللعين الذي انطرح اهلنا وقومنا جثثاً في سبيل استرجاع عرشه .

قال : لقد استرحت منه الان واستراحت العرب ، وان الرب القادر القهار هو وحده يعاقب الظالمين . واستأذن خراذمهر عندئذ ، في ان يطوف حـــول الحصن ليرى سراديبه وابراجه ، وينقل الى الاحنف ورجاله اخبار مــا يراه . ثم رجع بعد ساعة وقضى نهاره وهو يفكر فيما سمعه ، وبات ليلته ساهراً وقد ساءه موت شهريار ، بل ساءه ان ينقل النبأ المروع الى الفتاة التي أحب . .

***

اصابع الفتنة

في السنة الثلاثين للهجرة ، أمر سعيد بن العاص ، والي الكوفة حذيفة بن اليمان بان ينصرف عن الري الى الباب ليكون عوناً فيها لعبد الرحمن بن ربيعه ، ففعل حذيفة ما أمره به . واقام بذلك القطر حتى تم للمسلمين الأمر ودانت لهم الباب ، وما حولها من اقاليم . فلما رجع قال لسعيد بن العاص : لقد رأيت في غزوتي هذه امراً ، لئن ترك ، لاختلف الناس في القرآن ثم لا يقومون عليه ابداً.

قال : وما ذاك ؟

قال: رأيت اناساً من أهل حمص يزعمون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم وإنهم اخذوا القرآن عن المقداد .

ورأيت أهل دمشق يقولون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم ورأيت اهل الكوفة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على ابن مسعود. واهل البصرة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على ابي موسى الاشعري ويسمون مصحفه ، لباب القلوب . ثم خبر حذيفة الناس في الكوفة ، وحذرهم ما يخاف . فوافقه اصحاب رسول الله وكثير من التابعين ، ولكن اصحاب ابن مسعود لم يوافقوه وكانوا يقولون : نقرؤه على قراءة ابن مسعود .

فقال : انما انتم اعراب فاسكتوا فانكم على خطأ ووالله لئن عشت لآتين امير المؤمنين ولأشيرن عليه ان يحول بين الناس وبين ذلك . فأغلظ له ابن مسعود ، فغضب سعيد بن العاص ، وغضب حذيفة وقاما وتفرق النـــاس ، والضغينة والغل في الصدور .

ثم سار حذيفة الى عثمان ، وخبره بالذي رآه وقال : ادركوا الامة .

فجمع عثمان الصحابة وقص عليهم ما سمعه ، فأعظموه ، ورأوا جميعاً ما رآه حذيفة وخافوا ان تستيقظ الفتنة وتندلع ألسنة النار . فارسل عثمان عندئذ الى حفصة بنت عمر بن الخطاب يقول لها : ارسلي الينا بالصحف ننسخها..

وكانت هذه الصحف ، هي التي كتبت في أيام أبي بكر ، فان القتل لما كثر في الصحابة يوم اليمامة ، قال عمر لأبي بكر : ان القتل قد كثر واني اخشى ان يستحر بقراء القرآن فيذهب من القرآن شيء كثير ، قال : وما ترى ؟ قال : أرى ان تأمر بجمع القرآن . فأمر ابو بكر عندئذ ، زيد بن ثابت ، فجمعه من الرقاع والعشب وصدور الرجال فكانت الصحف عند أبي بكر ثم عند عمر . فلما توفي عمر ، اخذتها حفصة ابنته فكانت عندها حتى ارسل عثمان يأخذها منها وامر زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف وكان يقول لهم: اذا اختلفتم فاكتبوها بلسان قريش فانما نزل القرآن بلسانهم .

فلما فعلوا ، ردّها عثمان الى حفصة وارسل الى كل افق بمصحف وحرق ما سوى ذلك . فعرف الناس فضل هذا العمل الا اهل الكوفة ، فقد امتنعوا من ذلك . وعاب بعضهم امير المؤمنين ، ثم ارتفعت الاصوات هذا يشكو عثمان وهـذا ينتصر له حتى عمت الفتنة ، فتنـة القول ، جميـع الاقطار التي ينزلها المسلمون .

وامسى الناس في الظاهر ومن وراء الستـــار ، فريقين ، أحدهما يشايع الخليفة ، والاخر يكيد له ، فكأن القوم ، من الناحيتين كانوا يهدمون بأيديهم بناء تضامنهم الراسخ ولا يبالون :

واقبلت السنة الثانية والثلاثون والنـــاس على ما رأيت ، وعبد الرحمن بن ربيعة عامل لعثمان على الباب ، وقد تتابعت غزوات جيشه ، وكثرت الحروب بينه وبين أهل الخزر والترك . والنصر يبسم لرجاله ، والعدو يتراجع امام سيفه. حتى اجتمع الترك فقالوا : كنا امة لا يجسر احد على ان يدنو منا حتى جاءت هذه الامة القليلة فاقتحمت علينا ارضنا وظفرت بنا .

فقال بعضهم : ان هؤلاء الغزاة لا يموتون ولو كانوا يموتون، لأصيب في غزوهم رجل منهم !! قالوا ذلك،لان المسلمين لم يقتل احد منهم في الحروب التي استمرت نارها بينهم وبين القوم ، من قبل . فقال البعض الآخر : نجرب هذه المرة فقد عرفنا انهم يتهيأون للزحف وسنكمن لهم في الغياض ونرميهم بالنبال . وجعلوا يعدون العدة ليقابلوا الغزاة ، بالقوة التي تضمن لهم سلامة الوطن ...

ووضعوا ايديهم ، من اجل هذه الغاية ، بأيدي اهل الخزر وتعاهدوا على الدفاع في ساحات القتال حتى يظفروا او يموتوا . وجعلت صفوف الخزر ، تنضم الى صفوفهم ، في ذلك الاقليم . وكان امير المؤمنين ، قد بلغه ان عبد الرحمن يهم بالغزو ، فكتب اليه : « ان الرعية قد أبطرتها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فاني أخشى ان يقتلوا » .

ولكن عبد الرحمن لم يرجع وقد كره ان يرتفع في الاقليم الذي يجاور ولايته ، رأس ملك او امير . وغزا القوم ، واهل الكوفة وراءه يدفعونه الى مواقف الشرف ، ويبتسمون للموت ، الذي يفاجئهم وهم في الميادين . فانتهى الخبر الى عثمان ، فأرسل الى سعيد بن العاص ، يأمره بان يبعث بسلمان بن ربيعة ، اخي عبد الرحمن ، مدداً لأخيه .

ومشت طليعة عبد الرحمن الى الساحة ، وهي مؤمنة بأن النصر سيتم للجيش العربي في اول جولة تجولها الخيل . غير ان الترك والخزر ، الذين كمنوا للمسلمين في الغياض ، كانوا على حذر ، وكانت عيونهم في الجبل والسهل ، تحصي على العدو انفاسه . فلما دنا رجال المقدمة من الكمين ، أمطرهم اهل الغياض وابلاً من النبال ، فتضعضعوا ، ثم انقضوا عليهم بالسيوف فحصدوهم حصداً لم يبق منهم غير رجل واحد لجأ الى الفرار حاملاً النبأ الرائع الى عبد الرحمن . أجل ، قتلت طليعة عبد الرحمن قتلاً لم يرَ اشد منه ، فزحف حانقاً يفكر في التقتيل والتدمير والهدم ، بل كان يفكر في القضاء على كل فتى من فتيانهم يحمل السيف !! ولكنه اصطدم بالاسوار عليها المجانيق ، ترسل القذائف الى قلب جيشه وجناحيه ، وتلقي الذعر في القلوب . فجالد وصبر ، وجعل يدور حول بلدهم فلا يلقى غير الموت تحمله السهام ، من الابراج الى الرجال . وبينا هو ينظر في الامر ، ويعد عدته لهجوم عام تتحطم معه الاسوار ، خرج جيش العدو فجأة الى الفضاء ، ودارت في ذلك السهل الذي يحيط بالبلد ، رحى قتال هائل اهتزت له الارض . وقبل ان تغرب الشمس ، تمشت في جسم الجيش العربي قشعريرة الخوف ، واتجهت العيون الى منافذ الفرار . .

وكان الفارس يهامس اخاه قائلاً له : قتل عبد الرحمن . نعم ، قتل القائد

الباسل الذي قضى حياته كلها في الميادين حاملاً لواء الظفر ، ولم يلبث الجيش حتى أمسى فرقتين هاربتين ، هذه الى مدينة الباب ، والاخرى الى ناحية جرجان ، في الشمال الغربي .

وكان سلمان بن ربيعة قد انتهى الى الناحية الاولى ، فلما رأى ان الجيش اندثر ، وان اخاه قد قتل ، آثر البقاء في البيت ريثما يتهيأ من جديد ، للزحف الى اقليم العدو الظافر . وورد امر سعيد بن العاص ، بجعل سلمان عاملاً على ولاية اخيه عبد الرحمن ، وجعل حذيفة بن اليمان ، اميراً للغزو ، بأهل الكوفة . ثم أمدهم امير المؤمنين بأهل الشام عليهم حبيب بن مسلمة القرشي ، وهو من وجوه الناس . فأراد سلمان ، وهو عامل الاقليم ، ان يكون صاحب الامر . فأبى حبيب ولم يشأ الاعتراف بسلطانه . حتى همّ اهل الشام بان يضربوا سلمان ، على مرأى ومسمع من القوم ، فقال اصحابه : اذن نضرب حبيباً ونحبسه وان أبيتم كانت القتلى فينا وفيكم ...

وقال أوس بن مغراء في ذلك :

ان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل

وذلك هو اول اختلاف وقع بين اهل الكوفة والشام . وبدأ بعض القوم ينظر الى البعض الاخر بعيون فيها شرر البغض وكانت الحادثات تتمخض بالفتنة العامة بين المسلمين ، تشتعل بعدها النار ...

* * *

- ٦٣ -

لم يشأ طارق ان يرى اليتيمة ، قبل ان يرى عمه وأباه ، ويقرأ الاثنان وصية شهريار ...

وكانت الوصية التي يحملها برسي تحمل اليه الامل الضائع ، وتعيد اليه الرجاء ، فلما انتهى مع خراذمهر وبرسي الى مرو الروذ ، مشى الى قصر الامارة

واستأذن على الاحنف ، ثم دخل الثلاثة والاحنف جالس لحاجات الناس مع اخيه عبد الله ، وعنده وجوه القوم من عرب وفرس . فنظر الاحنف الى اخيه نظرة خاصة ، ثم انثنى يحدق الى الفتى وقد اطلت الشفقة والحنان من عينيه ، ثم قال : متى قدمت يا بني ؟

فدنا الفتى وعانق عمه واباه ثم قال : قدمت الساعة ولم ارد ان أرى احداً قبل ان امر بهذا المجلس .

– وهل قضيت حاجتك ؟

– يخيل اليّ اني قضيتها وسترى !

فهامس أخاه قائلاً : يظهر انه لا يعلم شيئاً مما جرى .

وجعل ينظر في حاجات القوم حتى خرجوا جميعاً ولم يبق في مجلسه غير الثلاثة ، وعبد الله ، فقال : الى اي بلد انتهيت يا طارق ؟

– الى مرو الاولى ثم الى جبل الزهاد .

– ورأيت عاملنا ماهويه ؟

– نعم وكان رفيقاً لي في رحلتي الى الجبل وقد عاد اليوم الى بلده .

– وهذان الرجلان ؟

– هذا خراذمهر، شقيق رستم القائد الفارسي الكبير الذي قتل في القادسة وهو صاحب الجبل الذي ذكرت .

فجعل يردد اسم خراذمهر ، ثم بان الغضب في عينيه وقال : لقد ذكر لنا ماهويه من قبل اسم خراذمهر.. انه من القواد الذين حملوا السيف مع يزدجرد، في مرو الشاهجان .

فقال خراذمهر : كنت بين قواده ايها الامير ولكنني لم اجرد سيفاً في وجه عربي كما تعلم ..

– ذلك لان يزدجرد وقع في شرك ماهويه فطردكم من الجيش ، ولو لم يفعل ذلك لجردت هذا السيف . .

قال : لا تلمني ايها الأمير فقد كانت فارس كلها على دعوة الملك .

– ولكنها خسرت هذا الملك الآن ..

قال : يكفي ان للعرب ملكاً أعظم منه هو ملكها اليوم .
— وتخضعون له كما كنتم تخضعون ليزدجرد ؟
— اجل ؛ وقد قدمت مع الأمير الفتى لأظهر هذا الخضوع .
قال : كان خضوع القواد من قبل خضوعاً كاذباً سالت بعده الدماء . .
قال : ليس على الامير الا ان يصبر فيختبر خضوعي .
— ماذا تقول يا طارق ؟
— لقد اثبت لي ماهويه انه من اشراف فارس الذين لا ينكثون العهد .
قال : اهلا بكل فارسي يضع يده بيد العرب ويكون من المخلصين..اجلس
فراذمهر فقد آمنا بوفائك .
ثم قال : والرجل الاخر ؟
— هذا برسي يا مولاي الذي حدثوك بأمر اسلامه يوم قدم مرو حاملا رسالة
شهريار الى ابنته .
قال : برسي الذي فرّ من جيش يزدجرد مع شهريار ؟
فاجابه برسي قائلاً : ومن قال للامير أني فررت ؟
— سنجان .
قال : لا يليق بأمير المروين ان يصدق ما يقوله هذا الكاذب . .
— ألم تفر ؟
— خطر لي ان افعل فلم استطع .
— واين قضيت الايام التي أنقضت بعد مقتل الملك ؟
— قضيتها في قفص يوضع فيه النمر والذئب !! وقد كافأني هذا الملك بأن
جعله منزلاً لي . . .
— اي انك كنت اسيراً .
— بل كنت حيواناً يا مولاي كما قلت . . .
— ولماذا فعل ذلك ؟
— لاني خرجت عن دين فارس . .
— وشهريار ؟

– قتل شهريار يا مولاي .

فسكت قليلاً ثم قال : وكيف قتل ؟

فجعل يقص عليه الحادث ويصف له موقف ذلك الخراساني الوفي الذي ذهب ضحية اخلاصه ..

فاشرق جبينه قائلاً : والوصية معك ؟

– هذه هي يا مولاي .

فتناولها الاحنف وجعل يقلبها بيديه ثم دفعها الى اخيه وهو يقول : اقرأ يا عبد الله .

وحبست الانفاس ليسمع القوم ما ورد فيها ، فقرأ عبد الله : الى عامل المروين الاحنف بن قيس من شهريار الخراساني :

هذه وصيتي ابعث بها اليك مع برسي احد خصيان الملك الظالم ، معترفاً فيها بجميع الاسرار التي لم استطع من قبل ان ابوح بها لك ولمن حولك ؛ وقد كتبتها وعيناي تنظران الى الموت ، ويدي ترتجف ليس عن خوف ، بل عن شعور بألم الفشل والخيبة اللذين رأيت . . كنت احارب العرب في جيش القادسية كما يحاربهم سواي ، وكان قائدي الذي احبه ؛ رجلاً من اشراف فارس يدعى ابان زرد وهو شقيق القائد رستم والقائد الاخر خراذمهر . فلما دارت الدائرة على اهل فارس ، قتل قائدي ، ولكنه اوصاني وهو يلفظ روحه بان اقضي حياتي ابناً لزوجته التي تقيم بالمدائن ، وزوجاً لفتاته التي يقال لها جهان روز وكانت بين جواري البلاط الفارسي .

فانصرفت الى المدائن وكانت الزوجة قد ماتت وشيعت الفتاة جثتها الى القبر وهي تندب سوء حظها وتبكي ابويها اللذين خسرتهما .

واراد الله ان يستهويني جمالها وان يتمشى الحب مع دمي ، فأستأذنت على يزدجرد وطلبت اليه ان يجود علي برضاه لأتزوج الفتاة ، فطردني من بلاطه ، ثم خطر له بعد ذلك ان يجعلها من حظاياه ، ففعل . ودار الزمان دورته ، فاذا بيزدجرد يخلع عن عرشه ، ويخرج من المدائن هارباً لاجئاً الى المدن التي كان يظن انها تثبت في وجه المسلمين .

وكنت قد خسرت يدي في الميدان ، ثم استطعت ، بفضل الحيلة والدهاء ان امسي من رجال قصره .

فلما انتهى في فراره الى حلوان ، أحست جهان روز بآلام الوضع ، وكانت قد أحست من قبل بغضب يزدجرد وقسوته وشراسته وجفائه .

وكان يعلم ان العرب تلحق به فلا بد له من الفرار ، كما انه كان يعلم ، ان جهان روز التي سقطت واهية القوى ، تحت تأثير شراسته وجفائه، لا تستطيع النجاة من الموت الذي بدأ يصارعها وهي على فراش الولادة . ولكنه لم يعبأ بذلك ، بل ترك حلوان يريد الريّ ، ووهب لي ، انا كاتب هـذه الوصية ، باستعطاف كبير خصيانه ، شيئاً من المـال اعالج به امر تلك المرأة المنكودة الحظ التي تسير بخطى واسعة الى القبر . فعل ذلك دون ان ينظر اليها نظرة او يقول لها كلمة !

ووضعت جهان روز ، ليلة فراره طفلة جذابة الملامح ساحرة العينين ، ثم لم يلبث الموت حتى ضمهـا اليه وهي تقـول : انتقم لي ، وكن أباً لطفلتي ولا تبح لها بالسر الا في عامها الخامس عشر ، واحذر ان يتزوجها فارسي . ومنذ ذلك الحين وانا ابحث عبثاً عن يزدجرد حتى اظفرني الله به ، ولكنه سيقتلني قبل ان اقتله ، فقد قرأت الموت في عيني مستشاره اللعين سنجان الذي كان عاملا لك على مرو .

فاذا اراد طارق ابن اخيك ان يتزوج اليتيمة ، فاليتيمة ليست ابنة شهريار الخراساني بل هي حفيدة الملوك الذين دان لهم الشرق وابنة الملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى من جاريته جهان روز . فصاح طارق قائلاً :

اي والله ابنة يزدجرد ، وقد كانت تدافع عنه وهي لا تعرفه ، أرأيت يا مولاي انها أشرف نسباً واعظم مقاماً مما كنت تظن . . فأطرق الاحنف وهو يداعب سوطه دون ان يتكلم .

فقال عبد الله : ان جهان روز ابنة اخيك يا خراذمهر .

– نعم ، ولم اعلم ماذا جرى لها الا في هذه الساعة .

وانتظر القوم ان يقول الاحنف كلمته فلم يفعل ، فقال طارق : مـــاذا رأيت يا مولاي ؟

فتمتم قائلا : رأيت يـــا بني ان عمك واباك كانا مخطئين في ظنونهما وان سنجان خدعهما باكاذيبه .

قال : أرجو ان تأذن لليتيمة في المثول بين يديك ، لننقل اليها خبر موت شهريار ثم نسكت عند هذا الحد الان . فجعل ينظر الى اخيه كما كان ينظر اليه عند دخول طارق .

فذعر الفتى وأيقن عندئذ بان في الامر ما فيه ، فقال : أرى أبي وعمي يهمان بالكلام ثم يترددان فيه . . اني خائف .

فقال عبد الله : ليس في الامر ما يدعو الى الخوف يا بني .

– وماذ اذن ؟

– حادث جرى في مرو وانت غائب .

قال : أماتت اليتيمة ؟؟

بل خرجت من البلد ونحن لا نعلم . .

وظن الاحنف وعبدالله ان الفتى سيثور ثائره ، وسيهيج للخبر كما يهيج النمر ولكنه لم يفعل بل ظل هادئاً كأنه لا يعرف الفتاة التي قيل له انها خرجت من يده ولو لا اختلاج عينيه لقام في ذهن أبيه انه لم يسمع . . .

وجعل ينظر الى الارض ثم يرفع نظره وهو ساكت حتى ابتسم اخيراً ابتسامة هي ابتسامة القهر أو أشد . .

وخرجت من فمه الفاظ متقطعة كالمجنون يخاطب نفسه ، ثم ارسل الى أبيــه نظرة حادة ، وجاد على عمه بنظرة مثلها ثم قال : اذن فاليتيمة يا عم ليست بمرو الروذ !!

فعرف الاحنف عندئذ ان ذلك الهدوء الغريب ستعقبه الثورة الجامحة وان الغرام الكامن في الصدر سيتولى أمر الكلام في تلك اللحظة .

فقال لغلامه وهو يشير الى الفارسيين : تقدم هذين الرجلين الى قاعة الاضياف ، وانظر في امرهما ريثما يخرج طارق من هذا المجلس .

فكأنه كان يخشى ، انتبدر من الفتى ، والفارسيان حاضران ، بادرة غضب ، تضيع معها عظمة الامارة ، وهيبة الاحنف بن قيس ، ثم قال : صدق أبوك يا بني فاليتيمة ليست في مرو ..

– ومتى خرجت منها ؟

– يوم خروجك انت وقد صبرت الى الليل ..

– ومعها جاريتها ؟

– ان الجارية باقية وهي التي قصت علي في صباح اليوم الثاني ، خبر هذا الفرار الفجائي الذي لم يخطر لأحد .

– وماذا صنعت عندئذ ؟

– أرسلت بضعة رجال يقتفون اثرها فلم يبصروا احداً ، ولكنهم عرفوا انها مرت بمنزل شهريار على الشاطىء ، وخرج معها منه ، ذانك العبدان ، وغمرة زوجة سنان .

– والمنزل مهجور الآن ؟

– ان في المنزل رجلاً فارسياً كان من خصيان يزدجرد ، وهو صديق شهريار ، وكيف لم تمرّ بذلك المنزل وانت راجع الى مرو ؟

– جئت من الناحية الاخرى لأتعجل في الرجوع ، ولم أكن أظن يا عمّ انك لكيد ابن أخيك ، وتطرد الفتاة التي نشأت في ظل أبي وعاهدتها على الوفاء !!

قال : لا تظن الظنون قبل ان تسمع وترى .

– وماذا ارى ؟ سأرى الوحشة التي تركتها لي ، واسمع النـاس يقولون : ربى سيد بني تميم فتاة ثم طردها من بيته !!

فابتسم قائلاً : ليس لعمك يد في فرار اليتيمة يا بني ..

– اذن فهذه يد أبي ...

– ولا تتهم أباك فهو بريء ... واقسم لك بشرف العشيرة اننا لم نرَ اليتيمة ليلة فرارها ولم يخطر لنا انها ستغادر مرو دون ان تقول لنا كلمة .

قال : ألم تسأل حراس السور ؟

– بلى ، وقد خرجت مع سنان والحراس بالباب ..

وأومأ اليه بان يسكت ، ثم قام فخرج الى الرواق ، ولم يلبث حتى عـــاد وهو يقول : ستجيء الجارية . واقبلت الجارية بعد لحظة، فقال: اسألها ياطارق.

قال : اين اليتيمة ياسوداء ؟

قالت : تركت المنزل يوم تركته انت .

– وكان معها غير سنان ؟

لم ارَ احداً يا مولاي .

– وهل ذكرت لك اسم البلد الذي رحلت اليه ؟

– لم تذكر شيئاً من هذا ولكنها اعطتني رسالة مكتوبة على قطعـــة من العاج ، داخل قطعة من الديباج ..

– لمن هي ؟

–لك يامولاي، وقد أمرتني بان اكتمامرها جميع الناس ولا اسلمها الااليك.

فقال عبدالله : لقد عرف طارق الان ان اباه وعمه بريئان .. اين هي ؟

فأخرجتها من صدرها وهي تقول : لم تمسها يدي الا في هذه الساعة ، خذها يا مولاي .

وناولتها الى طارق . فجعل يقرؤها وهو ساكت ، ولكنه كان يمسح دموعه كلما قرأ كلمة ، ولم ينته حتى تلاشت قواه ، وسقطت مـــن يده . فأخذها الاحنف ، وانحنى عبدالله يقرؤها مثله وقد جاء فيها : الى طارق بن عبدالله . اكتب اليك الان هذه الرسالة ، على ان ارحل عن مرو الروذ بعد ساعة ، الى مكان بعيد ، احتجب فيه ، اذا استطعت ، عن العيون . اني في نظرك ونظر الاميرين الاحنف وعبدالله، فتاة خداعة ، اكافىء الخير بالشر ،واحمل في الصدر للمحسنين اليّ ، بغضاً قاتلاً يمليـــه علي اخلاصي لعدوهم يزدجرد ملك الفرس . وهنالك شيء آخر لا انساه ، هو اني عاهدت ابي على قتلك ، وقتل ابيك وعمك بالسم اجعله في الطعام والشراب. وانها لتهمة ليس في التهم التي توجه الى الناس، اطيب منها اثراً واخف ظلاً .. وانه لشرف يطيب لي ان اذكره كلما ذكر الفضل . !

فتاة تعيش في نعمتكم يا آل قيس ، وهي خائنة . !! حسبتموها نعجةفكانت

ذنبا ، وخيل اليكم ان في صدرها عاطفة وفاء، فاذا هي لا تعرف غير النـــذالة واللؤم !!

أفتطيق يا ابن عبدالله ان تتزوج اللئيمة الخائنة الغادرة .. بل الافعى السامة التي تنفث سمها في ظلام الليل . انك اذا رضيت بذلك فـــانا لا ارضى ، واني لأضن بآل تميم ، ان يضموا الى صفوف العشيرة ، يتيمة في صدرها ا لحقد ، وفي يدها السم !!

طارق ! مانسيت قط اني أحببتك .. حبا تعجز شعراء العرب عـــن ان يصفوه ، ولم انس قط اني استسلمت الى المنى فضاعت... والى الأمل فخاب... ولكن .. ليس الذنب في ذلك ذنبي ، بل هو ذنب العاطفة التي خفقت في هذا القلب ثم قذفت بي الى الهاوية .. والان ، اعترف باني لك .. وسأبقى لك الى الأبد .. ان هذا الحب الذي ملك أمري ، وصيرني عبدة له ، هو الذي يخلق في قوة الاحتمال الى النهاية .. نعم يا طارق اني لك .. ولكن بالروح .. وان التهمة التي وجهتها الي ، وانا البريئة ، تفصل بيني وبينك ، من ناحية الزواج ، الذي كنت أرغب فيه . الوداع ... وانه لوداعٌ لا يعقبه لقاء ، فلا تسأل عني احداً ولا تبحث عبثاً ، انك لن تستطيع ان تجد الفتاة التي ضيعتها الاقدار ، وجـار عليها الزمان . الوداع ... واذا عاد أبي فخبره اني الخائنة !! واني الأفعى !! ولكنه لن يعود فهذا القلب يقول لي انه قد مات .. وانك لتجد ، على قطعة العاج بين هذه السطور .. اثار الدموع ....

فلما انتهى الاميران من القراءة ، قال الاحنف : عد الى نفسك يا بـــني واذكر اي فتى انت .

فرفع رأسه قائلاً : اذكر اني خسرت من احب ..

– وهل وثقت الان بانه لم يكن لنا يد في الامر ؟

– اجل !

– وعلى اي شيء عولت ؟

– على الطواف في خراسان ، والري والعراق ، بل في فارس وارض العرب كلها حتى يجتمع الشمل او يخيب الرجاء .

– بل اطلب اليك ان تبقى في مرو وانا اتولى الامر عنك .

قال : انت ؟

– نعم انا ولكني لا أذهب بنفسي بل ارسل غداً من يحمل الي اخبار الفتاة ولو لجأت الى الغمام .

قال : لا يحمل هذه الاخبار غير طارق نفسه .

– ولكن اباك لا يطيق ان تبتعد عنه ..

– كنت تقول لي من قبل ان رجال الحرب لا يبالون بفراق المحبين . .

– ولكنهم يبالون بفراق البنين . .

– اما انا فلست براجع عما هممت به ولو لعنني أبي ولعنتني تميم .

قال : تصبر حتى يرجع الرجال الذين ابعث بهم .

– لا أعد بهذا فقد لا استطيع الصبر يوماً آخر .

فقال عبد الله : دعني افعل ذلك يا بني .

– ماذا ؟

– اخرج الى الاقطار التي ذكرت وأتوكل على الله .

– لك ان تذهب من ناحية وأذهب انا من ناحية اخرى .

قال : لي خبرة ليست لك وأنت لا تعرف غير النواحي التي زحف اليها الجيش وأنت في صفوفه .

– أستعين بخبرة رجل فارسي وقد يرافقني خراذمهر وبرسي الى حيث أمضي .

قال : هذان فارسيان وأنا لا اثق باخلاصهما لك .

– ولكني لم أرَ ، في كل ما رأيت ، رجلاً أعظم نفسا من برسي وأشد اخلاصا ومع ذلك فليكن معهما اثنان من العرب .

قال : سننظر في الامر الليلة فلا تتعجل فيه .

– افعل يا ابي ما يطيب لك على ان تكون واثقا بأني لن اعدل عن الذهاب ولو كان فيه هلاكي .

ثم نهض قائلاً : انظرا فيما تريدان فقد بقيت لي في مرو الروذ ليلة واحدة !

وخرج دون ان يلتفت الى الوراء حتى أتى دار الاضياف فقال لبرسي : لقد تركت ابنة الملك مرو الى حيث لا نعلم .

قال : سمعت اباك يذكر ذلك ، وقد عرفت مما جاء في الوصية ، انك تحب الفتاة وكنت تريد ان تجعلها زوجة لك .

– ولكني ضيعتها الان والحب باق في الصدر لا يزول .

– وماذا تفعل يا مولاي ؟

– اترك مرو كما تركتها هي ..

– الى اين ؟

– الى اقطار فارس وارض العرب .

– وتطوف في هذه البلاد كلها باحثا عن الفتاة ؟

– اجل !

– ولكن هذا الطواف لا ينتهي الا بعد اعوام .

– لينته بنهاية العمر فانا لا ابالي .

– ومتى تبدأ به ؟

– غداً وقد اتيت الان اسألك ان تكون رفيقا لي .

قال : سأفعل وسأكون عبداً لك .

فقال خراذ مهر : اتريد ايها الامير ان تجعلني من رفاقك ؟

قال : كنت اهمُّ بأن اطلب اليك ذلك فستكونان انتما الاثنين عوناً لي .. اجل ، انك لا تعرف اليتيمة ، ولكنك تعرف اقاليم خراسان والعراق والري وهذا ما احتاج اليه .

– كما اني اعرف جهان روز ابنة اخي وقد يكون في عيني اليتيمة ووجهها شيء من ملامح امها التي خانها القضاء .

– وانت يا برسي ؟

– اما انا فقد رأيت الفتاة يوم قدمت مرو ، وحدثتها بامر الملك ، ورأيت الدمع في عينيها السوداوين .

– وتستطيع ان تعرفها اليوم اذ رأيتها ؟

– لو رأيتها بعد عشرين عاماً لعرفتها ولو كان على وجهها حجاب .

قال : تهيأ اذن فلم يبق لنا ما نفعله في هذا البلد .

وانصرف الى المنزل يستفيد من ام عامر زوجة ابيه ، ما سمعت ورأت ،ثم انثنى الى حجرة الفتاة وجعل يبكي حتى جفت الدموع .

وكان ابوه قد عول على الرحيل ، فقال للاحنف : لم يبق الان ما يمنعنا من الطواف والبحث عن اليتيمة لنزفها الى الفتى ، انها أشرف النساء نسباً واحسنهن وجهاً ، وقد كان شهريار من خيرة الرجال الذين يدافعون عن الاسلام وينتصرون له . .

قال : ولكن هذا الطواف سيضيع على ما ارى .

– لماذ ؟

–لان ارض فارس واسعة الارجاء ، وقد تلجأ هي ، بعد ان اتهمت بالخيانة، الى رجال من قومها يخفونها في الصدور .

قال : لقد نسيت امرين ، احدهما انها تحب طارقا ، وهي لا تستطيع ، ولو استخفت عن العيون ، ان تنساه .

– والأمر الآخر ؟

– اما الآخر ، فسنان عربي من بني سليم ، والعربي لا يلجأ الى قوم من الفرس .

– اذن ترى انها تؤثر الذهاب الى ارض العرب .

– او الى ارض الفرس التي تنزل فيها طوائف العربان .

– وتريد انت الى تزور كل بلد فيه عربي ؟

نعم وقد يمهد الله لي سبل التوفيق فأعثر على ضالتي ثم اعود بعد شهر او شهرين على الأكثر .

قال : خير لنا ان نبعث بضعة رجال من قومنا يقومون بما تقوم به وتبقى انت في مرو .

– وكيف يطيب لي ان ابقى فيها ، وولدي بعيد عني وانا لا أعلم متى يعود بل لا أعلم في أي بلد هو .

– وتترك الجيش يا عبدالله ؟

– لو كان يزدجرد حياً لما تركته ، ولكن النـار قد خمدت الان ولم يبق في فارس كلها امير يحمل السيف .

– ومن ينقل اليّ اخبارك ؟

–ابعث اليك من حين الى آخر بهذه الاخبار .

– ولا تعدل عن هذا ؟

– ليس من الرأي ان أفمل فالنار تتأجج اليوم في فؤاد طارق وقد ينتهي به غرامه الى ما لا أحب .

– وهل ترى ان نبوح لقومنا بسر الفتاة ؟

– لا ، بل تكتمهم اياه ، وتقول لمن يسألك ، ان عبدالله وولده خرجا الى بعض النواحي ، لشأن لهما .

وبينا الاحنف يفكر في الامر ، انصرف عبدالله وهو يقول : اخرج الان لأعدّ عدة الرحيل وسأراك في هذا الليل .

فتمتم قائلاً : مسكين طارق فقد خانه القدر في غرامه ، ولو لم أكن عامل المرون لخرجت بنفسي افتش معه عن ابنة يزدجرد . ولم يلبث عبدالله حتى لقي طارقاً في حجرة اليتيمة ، فضمه اليه وقال : طب نفساً يا بني فأنا ذاهب معك ؟ والله الذي قضى بالفراق ، هو الذي يمن عليك باللقاء .

وكان البكاء قد قرّح جفنيه فقال : اخشى ان يتعبك هذا الرحيل يامولاي.

قال : الرجل الذي لا تتعبه الحرب لا يتعبه السفر من بلد الى آخر .

– ولكني استطيع ان افعل وحدي ما نفعله نحن الاثنين ..

– ومع ذلك فأنت لا تنقل من مرو قدماً ، الا اذا كان ابوك وراءك يلحق بك الى حيث تسير .

قال : سيذهب معي برسي وخراذ مهر .

– كما يذهب عبدالله بن قيس ورجلان آخران ..

ودخلت عندئذ جارية اليتيمة فقالت لعبدالله : ام عامر تريد ان تراك .

فمشى يريد غرفتها فاذا هي بالباب وكانت تقول : دعوتك لأقول لك كلمة.

– ما هي ؟

– احذر ان ينصرف طارق من مرو وحده .. ان هواه الذي انتهى بهذا الفراق المر سيقضي عليه .

قال : وأنا قد جئت الان لأسألك ان تعدّي عدة الرحيل .

ولم يترك عبدالله ولده في ذلك الليل ، وقد انضم اليهما الاحنف في الهزيع الثالث منه . وكان الاميران يضعان منهاج السفر ، وقد خيّل اليهما ان الامل يعود الى صدر الفتى العاشق الغائص في لجة التفكير ...

***

- ٦٤ -

مرت ابنة الملك ، بمنزل شهريار على الشاطىء ، فلبست ثوب فتى ، وارسلت ضفائرها على الوجه والكتفين فاحتجب في ذلك ، جانب من ذلك الجمال الخلاب ، ولكن عينيها ظلتا ترسلان السحر الى كل من يراهما .

وكان سنان قد خبرّ زوجته كل شيء ، وأفهم العبدين ان اليتيمة أمست فتى يقال له شهريار ! وامرهما بأن يكتما امرها جميع الناس .

ثم وهب لطرخان الفارسي بعض المال قائلاً له : ان مولاي قد مات فارجو ان تستعين بما اعطيك اياه على قضاء الحاجات ، ولك ان تبقى في هذا المنزل حتى نعود . ولم يزد على ذلك كلمة فقد كان يعلم ان الكلام الكثير يفضح الاسرار ، والفتاة لا تريد ان تبوح بسرها لأحد .

ومشى القوم بعد ذلك يريدون البصرة ، ومنها الى الخليج ، حيث تنزل طائفة من بني سليم . وسنان يعرف اقليم البصرة كله ، ويعرف الطرق البعيدة التي لا ترغب في السير عليها جماعات المسافرين . وكان السفر طويلاً شاقاً ، احتمل شهريار الجديد آلامه بصبر ، ولكنه أحسّ في النهاية ، انه لا يستطيع ان يحتمل الالام الاخرى التي لها صلة بالقلب .. وليس في ذلك شيء من الغرابة ، فغرامه كان مبرحاً ، وعاطفته وثابة ، وهو ضعيف القوى ، وفي مقتبل العمر . قضى ايام سفره كلها ، يناجي طارقاً في نهاره وليله ، ويبكي هواه المخنوق ،

وامله الضائع بل قضى ايامه كلها يتلفت الى الوراء ، فقد كان يظن ، كلما سمع همس النسيم ، ان طـارقاً لا حق به .. والخادم الامين سنـــان ، يرى كل ذلك وقلبه يقطر دما ، ولكنه لم يكن يجسر على ان يتصدى للعاطفة الهائجة ..

حتى رأى اخيراً ، ان ذلك البكاء الدائم سيقودها الى القبر قبل ان ينتهوا الى الخليج ، فقال لها في مساء يوم : لي كلمة اقولها وانا اخاف ان تغضبي علي ، فمسحت دموعها قائلة : ان الفتاة التي اختنق غرامها وهي في المهد لا تغضب الا على الزمان الغدار .. قل ما يخطر لك .

– لقد رأيت انك لا تستطيعين ان تصبري على الفراق .

– والصواب فيما رأيت وانا اعترف بذلك .

– اذن نرجع فليس من الرأي ان تستسلمي الى اليأس .

فاستيقظت كبرياؤها وجعلت تقول : اذن نرجع .! ولكن الى اين ؟

– الى المرغاب الذي نشأت على شاطئه .

– وهل تظن ، وانا العاشقة ، اني اطيق النظر الى طارق بن عبدالله وقــد اتهمني عمه وابوه ؟!

– من يعلم يامولاتي ، فقد يعود طارق حاملاً الى عمه اخبار ابيك كما هي ، بل قد يعود وابوك معه ..

– ان ابي قد مات وقلبي يقول لي ذلك ..

– لا تصدقي احاديث القلوب فهي كاذبة .

– ليعد ابي ، وليعلم ان ابنته لم تشأ ان تعيش بين قوم ينظرون اليها جميعهم نظرات الازدراء ..

قال : لو كنت انا اليتيمة ، لآثرت الاقامة على الشاطىء ، مع هذا الذل الذي تذكرين ، على ان اخلق العذاب واللوعة لأبي المحسن الي ، وادفعه بيدي الى الطواف في كل ارض باحثاً عن ابنته .

– قلت ان ابي لن يعود وأنا مؤمنة بما قلت .

– ولكن طارقاً سيعود ، ان لم يكن قد عاد اليوم .

– ليفعل طارق ما يطيب له .

– انه الفتى الذي تحبين ..
– أجل، وقد كتبت اليه اني احبه، واني لهبالروح، الى الابد وحسبه هذا ..
قال : ألم يكن لمولاي ابيك سر لا يعرفه احد ؟
– بلى !
– ومن هو موضوع سره ؟
– انا !
– اذن فارفقي بنفسك ، واعلمي انه يجب ان تعرفي هذا السر الذي يتعلق بك قبل كل شيء .
فاضطربت قائلة : نعم هنالك سر لا أعرفه وهو يتعلق بي..ولكني سأعرفه وانا في الخليج عند بني سليم !
– وأي رجل ينقل اليك ذلك وانت في اطراف البلاد ؟
– أبعث بأحد العبدين الى مرو يحمل اليّ اخبارها .
– لا تستطيع العبيد ان ترى الاحنف بن قيس لتستطلع اخباره .
– ومع ذلك فأنا لا اريد ان امكث ببلد قريب من مرو الروذ .
– لماذا ؟
– لاني استلذ البعد الذي يقتلني !!!
قال : نمكث بمرو الاولى وهي بعيدة كما تعلمين .
– وتعرف فيها احداً ؟
– اعرف رجالا ليس من الرأي ان يروني فيها .
– واين نقيم ؟
– ببيت خارج السور ، بين البيوت التي يقيم بها الغرباء .
– وهل نسيت ان ماهويه من اصدقاء ابي ؟
– لم انس ذلك ، ولكن ماهويه لا يخطر له ان ابنة شهريار تنزل مع خدمها في بلده .
– وما هي الغاية من الرجوع الى مرو الشاهجان ؟
– ان اقرأ اخبار طارق واخبار مولاي ، عندما اشاء .

– وتعدني بكتمان الامر ؟

– اجل ، وسنظهر في مرو ، بمثل المظهر الذىعولنا على الظهور به ،عندما نلتهي إلى الخليج ، دون ان يتغير شيء .

فأحست عندئذ بشيء من الرجاء ثم قالت : الى مرو وليفعل الله ما يشاء .

وايقنت في تلك الساعة ، بأنها أعجز عـن ان تحتجب في خليج البصرة ، وتختنق هواها فيه ، الى الابد ... وكانوا قد ابتعدوا كثيراً عن مرو ، فانثنوا راجعين ، وهي لا تبالي بالمسالك الصعبة يقودها اليها سنـــان ، والتعب المضني الذي يضعف الجسم وينهك القوى . وكأنها راجعة ؛ لتضع يدها بيد الحبيب ، الذي وهبت له القلب والروح .

***

- ٦٥ -

خرج طارق وأبوه عبدالله ، والرجلان الفارسيـان ، برسي وخراذمهر في صباح اليوم الثاني ، ومعهم اثنان من رجال عبدالله . وقد راوا جميعهم ، ان يسيروا على الشـاطىء ، حتى ينتهوا الى مرو الاولى ، ثم يذهبون بعد ذلك الى النواحي الاخرى التي يختارون . وكان الغرض من ذلك ان يمروا بمنزل شهريار ويسألوا ذلك الخصي الذييقيم به عما يعلم .وكان طارق اسبقهم الى ذلك المنزل، وطرخان جالس في الفناء ، وقد بدت اللوعة في عينيه . والوحشة الرهيبـــة تبسط ظلها فوق اروقة المنزل وحجراته . فقال طارق والدمع يتلألأ في مقلتيه: لقد كان في هذا المنزل فتاة عندها العبيد والخدم فاين هي ؟

فرفع رأسه ببطىء قائلا : وكان فيه رجل من اهل خراسان يدعى شهريار الا تسألني عنه ؟

قال : رحم الله شهريار فقد قتله يزدجرد !

– ولا رحم الله يزدجرد قاتل الابرياء .. ثم قال : لقد بلغني خبر موته .

– ممن ؟

– خبرني به سنان بن سليم .

– وكانت الفتاة معه ؟

– اجل كانت اليتيمة معه ولكنها لم تمكث بهـــذا المنزل غير نصف يوم ثم غادروه جميعاً وجعلوني حارساً له كما ترى .

– ولا تعلم الى اين ؟

– سألني مثل هذا السؤال ، رجلان من رجال عامل المروين منذ بضعة ايام وكان جوابي : لا اعلم ..

– والان ؟

– والان ايضاً لا اعلم ..

قال : اني ابن اخي الاحنف امير هذه الديار .

قال : اقسم لك اني لا اعلم شيئاً .

– ولم تسمع ما تهامس به القوم ؟

– رايتهم ينقلون ما يطيب لهم حمله من اشياء هذا المنزل ، ثم احسنوا الي ببعض المال وامروني بان ابقى حتى يعودوا .

– ومعهم خيل ؟

– معهم اربعةبغال وفرس اشهب .

– وهل كانت الفتاة تبكي ؟

فهمَّ بان يقول له انها لبست لباس الفتيان . ولكنه كان يخاف عاقبة مـــا يقوله ، فقال : خيل الي انها كانت تذرف الدموع ..

واقبل عبدالله والقوم وراءه ، فقـــال الرجل : أفلا يسألني هؤلاء عمـــا سألتني انت ؟

قال : هذا ابي ورفاق لي فلا تخف فانت في ظل العرب ولا بأس عليك .. دلني الان على الناحية التي اتجه إليها سنان .

فأوما الى ناحية الجنوب قائلا : على شاطىء النهر .

– ومشوا في وضح النهار ام في الليل ؟

– عند غروب الشمس أيها الامير .

فقال لأبيه : الم يقل للرجلين اللذين بعثتم بهما غير هذا ؟

– لم يقل لها ما يفهم منه انه يعرف شيئاً .

فحول وجهه عنه وهو يحبس الدمع ، ثم رأى ان يوجه اليه سؤالاً عن شهريار، وابوه حاضر ، فقال له : قيل لي انك كنت من اصدقاء شهريار .

– صدق القائل .

– ومتى عرفت الرجل ؟

– منذ كان في البلاط .

– وكيف جعله الملك في بلاطه وهو لا يحبه ؟

– لا اعرف هذا يامولاي ولكني اعلم ان البغض نشأ في صدر شهريار ، بعد فرار يزدجرد من حلوان .

– وتعلم السبب ؟

– فر الملك وترك في حلوان احدى حظاياه ، وكانت تتألم على فراش الولادة وهي تدعى جهان روز .

– ثم ماذا ؟

– . ثم عرفت ان جهان روز ، المنكودة الحظ ، اسلمت الروح وهي على ذلك الفراش الذي ذكرت ، وطرح القدر بين يدي شهريار ، طفلتها التي اجهل اسمها ولا اعلم ماذا جرى لها بعد ذلك ..

– . ومن أمر شهريار بأن يمكث بحلوان الى جانب جهان روز ؟

– . انا ، وقد فعلت ذلك بامر الملك ورأيت شهريار راغباً في البقاء .

قال : يظهر انه كان يعرف المرأة من قبل .

– . قد يكون ذلك ، واعترف الآن ان رغبته في البقاء ، كانت بادية في عينيه ، بل خيل اليّ في تلك الساعة ان في عينيه شيئاً آخر .

– . وهذا الشيء هو الحب ..

– . نعم يا مولاي !

فقال عبدالله : لقد سمعنا الآن مرة اخرى شيئاً من وصية الرجل وهذا يكفي .. ثم قال للفارسي : عندما يطيب لك ان تترك هذا المنزل فارحل الى مرو الروذ .

– . ولكنني لا اعرف فيها احداً ايها الامير .

– . ان الكتاب الذي اسلمه اليك الآن يجعلك قريباً من عاملها الاحنف ابن قيس ، وهو اخي . .

وكتب الى الاحنف عندئذ، يسأله ان يجعل الرجل بين المقربين اليه. ودفع اليه الكتاب وهو يقول : لك ان تنتقل من هنا عندما تشاء . فحنى الخصي رأسه وفاضت دموعه تنطق بالشكر . ولم يبق لهم ما يصنعونه في ذلك المنزل ، فركبوا أفراسهم ومشوا على الشاطىء من ناحية الجنوب ، وعبدالله يقول في نفسه : جنينا على أنفسنا وعلى العاشقين . وكان طرخان يخاطب نفسه بعد ركوبهم قائلا : كان عليّ ان اذكر للفتى ان اليتيمة تلبس لباس الفتيان . .

* * *

- ٦٦ -

خرج ماهويه بنفسه ، يبحث عن سنان في مرو ، عندما انتهى اليه القوم ، وخبروه خبر رحيله الفجائي مع الفتاة . وارسل رجال الشرطة وشيوخ الحي ليشاركوه في التفتيش . ولكنهم رأوا جميعاً ، بعد ثلاثة ايام ، ان الفتاة لا وجود لها في مرو وفي البيوت التي تجاور السور . وكيف يجدونها وهي لم تزل في البر ، تجتاز الصحراء وراء الصحراء ، وتصعد الجبل وراء الجبل ، في طريقها الى مرو . وكان عبدالله يريد ان يتعجل في الطواف ، فقال : الى البصرة . . .

فأجابه طارق قائلا : اي اننا نسير الى احياء العرب .

– . نعم وبعد ان نطوف فيها ننتقل الى ارض الفرس .

فمشوا في اليوم الرابع ، بعد غروب الشمس ، يتقدمهم خراذمهر وعبدالله ، وقضوا ليلتهم كلها على ظهور الخيل ، حتى بزغ الفجر ، فضربوا خيمتهم في سفح جبل واستسلموا الى الكرى . وقد نهك التعب القوى وخدّر الاعصاب . وبينا هم يغطون في نومهم ، ظهر في السفح ، من الناحية الاخرى ، فرس أشهب حوله عبدان ، ووراءه اربعة بغال ، على احدها امرأة في خريف العمر . وكان الموكب موكب اليتيمة وهو راجع كما رأيت .

فقال سنان : أرى هنالك خيمة حولها الخيل .

فقالت الفتاة : لقد رأينا طوائف من الخيل وخياماً كثيرة قبل الآن .

- . ولكنها خيمة عرب كما أرى ولا توجد خيل العرب في ظل هذا الجبل الا لأمر ..

قالت : أترى رجالا ؟

- . لا ، وهذا ما يدفعني الى الدنو منها وسأفعل ، فانزلي عند هذا الكثيب من الرمل وسأعود . ومشى بخطى هادئة كأنـــه لص حتى دانى الخيمة فأبصر الرجال في زواياها وعند بابها كأنهم قتلى . وذعر عندما رأى طارقاً وعبدالله ، واشتد ذعره حين حدق الى برسي وجعل يتفرس فيه . ثم ارتجفت ركبتاه وكاد يسقط على الارض .

أينادي طارقاً فيقول له : ان اليتيمة بين يديك ، ام يعود الى اليتيمة فيقول لها : هذا هو طارق الذي تحفظين له الحب . وخاف ان يستفيق احدهم فيفسد عليه الامر. فآثر الرجوع ليستشير الفتاة ، على التردد في موقفه . وكان الكثيب يحجب رفاقه ، فلما انتهى اليه ، رأت اليتيمة عينيه المختلجتين، ووجهه الاصفر، وخيل اليها ان جسده يهتز ..

فقالت وهي خائفة : ماذا رأيت يا سنان ؟

- . رأيت ستة رجال ينشر الهدوء فوقهم جناحيه .

- . ويلك أيكون هدوء الموت ؟

- . بل هدوء النوم الثقيل الذي لا تزعج صاحبه العاصفة .

- . وهم من العرب كما قلت ؟

- . أجل يا مولاتي ومن اولئك النازلين في مرو الروذ !!!

فدلّها ذلك الشعور الخفي ، على ان طارقاً بينهم ، فخفضت صوتها قائلة : اذن لقد عرفتهم .

فتردد ثم قال : نعم ...

- . وهو بينهم ؟

- . هو وأبوه .

فوقفت الالفاظ عند شفتيها وأرخت نظرها الى الارض .

فقال : ماذا تريدين الآن يا مولاتي ؟ ان طارقاً على قيد ذراعين وقد لا يمن الزمان باللقاء بعد هذا اليوم .

فلم تجب .. فقال : كلمة واحدة اقولها له فينتهي كل شيء .

— . ولكنني متهمة .. بل انا خائنه ... وخير للخونة ان يخفوا وجوههم بالايدي عندما تقع عليهم العيون !!

قال: رأيت في القوم رجلا فارسياً يحمل اخبار ابيك شهريار على ما اظن.. ألا تذكرين برسي ؟

— . لا اذكر الآن احداً فمن هو ؟

— . هو ذلك الفارسي الذي مثل بين يديك في مرو وذكر لك الملك ..

— . وأي شأن لهذا الرجل مع طارق ؟

— . شأنه انه امسى مسلماً كما تعلمين ، وقد لقيه طارق في رحلته وقص عليه اخبار شهريار ، ثم طلب له ان يجعله رفيقاً له .

قالت : تحدثني بهذا كأنك كنت حاضراً ..

— . اجل يا مولاتي وهذا هو الواقع كأني أراه . ثم قال : قولي كلمتك قبل ان يفوت الزمان .

قالت : أيمر القوم بهذا المكان ؟

— . نعم وهذه هي الطريق الى البصرة .

— . اذن نبتعد عنها حتى يمروا او نصعد في الجبل .

— . ولا ترين طارقاً ؟

— . لا استطيع ذلك لاني اخشى ان تكون التهمة باقية في صدر ابيه .

— . لو كانت باقية لما خرج الاثنان يريدان البصرة ليبحثا عنك .

— . ومن قال لك انهما يريدانها من اجل هذه الغاية ؟

— . هذا ما يبدو لي .

فأطرقت قليلا ثم قالت : سنكون في مرو عند غروب الشمس كما قلت ، أليس كذلك ؟

ـ . بلى !

ـ . اذن نمكث بها حتى تلمس براءتي بيديك او تسمع حـــكم البراءة من فم الاحنف نفسه ..

ـ . وبعد ذلك ؟

ـ . تقول بعد ذلك لطارق ان اليتيمة في مرو ، فيجتمع الشمل ..

ـ . بل اقول له ذلك في هذه الساعة .

قالت : لا تنس ان شرفي لوثته الاقاويـــل فليس من الرأي ان استسلم الى عاطفتي قبل ان يغسل العار الذي لحق بي ..

قال : ارى انك ستسمعين الآن حكم البراءة من فم عبدالله .

ـ . وقد اسمع من جديد حكاية التهمة فاقتل نفسي فخير لي ان انصرف الى مرو اعالج فيها جراح قلبي وابكي هواي .

فحاول ان يجيب فأسكتته قائلة : لا تزد ، فشرفي قبـل كل شيء ، ومن لا شرف له لا عهد له ..

قال : سيستفيق القوم يا مولاتي بعد ساعة .

ـ . اما نحن فنرحل الآن عن هذا المكان حتى ينصرفوا ..

وركبت فرسها ، وتقدمها العبدان الى منحدر يشبه الكهف يبعـــد مئة ذراع ، وتبعها القوم فنزلوا في ظله وهم يرون دموعها على الخــــدين . ولم يجسر سنان بعد ذلك على ان يقول كلمة ، فقد رأى غرامها يسقط عاجزاً تحت عامل الكبرياء . وظل القوم نائمــــين حتى كان الظهر ؟ فأكلوا ، ثم حمـــلوا خيمتهم واشياءهم ومرت افراسهم بالقرب من ذلك المنحدر وهم لا يرونه ، وقد فات ذلك العاشق الوفي ، ان الفتـــاة التي يشقى في سبيل العثور عليها هي على قيـــد ذراعين منه .

أجل ، لقد فصلت الكبرياء في تلك الساعة ، بين الحبيبـــين ، بل فصل الشرف الرفيع بينها ... ذلـــك الشرف الذي اهـين ، وهو شرف الملوك . وأحسّت اليتيمة ان قلبها وثب من صدرها ليلحق بالحبيب .. فأغمضت عينيها، ثم استندت الى ذراع سنان وتمتمت قائلة : اكاد اموت .. ولكني لا اريـد ان

أراه .. فأنا خائنة ! وكان كلامها همساً لم يسمعه العبدان . وبعد ساعة ، توارى القوم عن عينيها في منتهى الافق . فحولت وجهها وقد عاد اليها شيء من الرجاء ثم قالت : الى مرو ، فالشرف قد ظفر اليوم وسيظفر غداً .
وكان سنان يقول في نفسه : لم أرَ بين النساء فتاة أطهر قلباً وأعزّ نفساً من هذه .

* * *

- ٦٧ -

تنكر عبدالله بن قيس ومن معه ، في البصرة ، خوفاً من ان ينتهي خبرهم الى عبدالله بن عامر . ولم يكن من الرأي ، ان يطلع امير البصرة على الغاية التي قدم من اجلها القوم . بل لم يكن من الرأي ان يعلم ، ان ابن قيس ، وهو سيد بني تميم بعد اخيه ، ترك مرو بدون اذنه . ولو عرف ذلك ، لظن الظنون ، واتهم الاحنف واخاه ، بانهما يشايعان الجماعة التي تعيب امير المؤمنين وتسبّه . أجل ، كانت الاخبار ، تبلغ ابن عامر ، من مصر والكوفة ، ومن نواح اخرى ، ان الناس يعيبون عثمان في مجالسهم ، وينكرون عليه ايثاره انسباءه على اصحاب الفضل من المسلمين ، وان لهم انصاراً في بعض اقاليم العراق وخراسان . وهي اخبار تظهر فيها اصابع الفتنة ، ومن حق امير البصرة ، ان يضطرب لها ، ويعدّ العدّة للقضاء ، على كل من تحدثه النفس ، في ولايته ، بان يكون شريكاً للقوم في التعييب والشتم ... وكان بنو تميم ، يعرفون ذلك ، وقد سمعوا ما سمعه ابن عامر ، ولكنهم لم يعبأوا به ، ولم يهتموا له ، وهم في الميادين . وقد قام في اذهانهم ، انها أقاويل واصوات ، لا يلبث عثمان بن عفان ، حتى يطمس آثارها ويخمدها بالسيف . وكان اهل البصرة ، يتناقلون الروايات ويتحدثون بأمر عثمان ، ولكن لم يخطر لهم ان يشتموه كما يفعل الناس في الكوفة ومصر . وابو طارق يسمع ذلك ولا يبدي رأياً ، بل كان يسأل في الاحياء عن المكان الذي ينزل فيه بنو سليم . ودلوه اخيراً على الخليج ، فأتاه وهو واثق بان سناناً لجأ اليه ، ليقيم بين ابناء قومه . اما بنو سليم ، فكانوا كلهم على الخليج كما قيل له ، الا بعض الفتيان والرجال ، الذين أبعدتهم الحروب عن العشيرة .

وسيد القوم عروة بن فهر . فرأى عبدالله ان يبوح له بسره ، ويسأله ان يكتمه قومه ، ويكون عوناً له في البحث عن سنان .

وكان عروة من اصحاب المروءة والشرف ، ومن ابطال العربان . وقد آثر عبدالله ان يستأذن عليه في الليـــل ، خوفاً من ان يلفت نظر العشيرة ويخلق الظنون . فلما آوى القوم الى خيامهم ، دخل عبدالله وطارق ، وحدهما وعنـــد عروة احد اعمامه وولداه ، وعبدٌ له . وكان قد عرف ان القوم الذين قدموا الحي ، وطلبوا ان يروه قوم من عرب خراسان ، فقال : انكما اثنان وقد قيل انكم ستة رجال ..

فقال عبدالله : صدقت وان رفاقنا الاربعة ينزلون في الحي .

قال . اهلاً فمن انتم . اني اسمع لغة تميم ..

فدنا عبدالله قائلا : لنا ما نقوله لك قبل ان نجيب عما تسأل .

-- . قل ..

— . لا نقول ذلك الا للأمير وحده .

فأومأ الى عمه وولديه ان اخرجوا ، ثم قال : اني سامع .

قال : عبدالله بن قيس التميمي وولده ..

فوثب قائلاً : سيد بني تميم وبطلهم في خيمتي وانا قاعد ؟! اجلس ايها الامير ومر بما تشاء فبنو سليم من جنودك ..

قال : اسألك اولا ان تحفظ في الصدر ما اقوله لـك وان لا تذكر للعشيرة اسمي واسم طارق .

— . سيكون لك ما تسأل .

قال : أتعرف رجلا من بني سليم يدعى سناناً ؟

فأجابه قائلا : في العشيرة رجال كثار يحملون هذا الاسم .. سنان بن مرة ، وسنان بن خازم ، وسنان بن همام فأيهم تعني ؟

— . أعني رجلا لم يكن مقيما على الخليـج .

— . وبأي بلد كان يقيم ؟

— . على شاطىء المرغاب بين المروين ، في منزل رجل خراساني يقـــال له

شهريار ولهذا الرجل فتاة ..

– عرفته فهو سنان بن عقبه وقد ترك العشيرة من بضعة عشر عاماً ولم يخطر له ان يعود .. ثم قال : ما هو غرضك من السؤال عنه .

– . اسأل عن الفتاة التي ذكرتها الآن فطارق يحبها .. !

قال : ويلٌ للشقية .. وهل تهرب من طارق وهو كما أرى ؟!

– . بل تحبه .. حتى لتبذل حياتها في سبيل هذا الحب ..

– . وماذا اذن ؟

فحدثه عندئـذ بكل ما جرى ، ولكنه لم يقل له ان اليتيمة ابنة الملك الفارسي الذي قتله قومه . فوضع يده على جبينه ثم قال : لا أظن ان الرجل لجأ الى العشيرة لأني لم اسمع انه قدم الخليج ، ومع ذلك فسأنظر غداً في الامر وابعث بولديّ يبحثان عنه من وراء الستار خوفاً من ان يعلم بالأمر فيعمد الى الاستخفاء .

– . ويذهب طارق معهما ..

– . ليكن ذلك ، وسيقولان للقوم انه ابن خال لهما وقد قدم امس . وخرج الثلاثة عند الصباح وجعلوا يدخلون البيوت بيتاً بيتاً ويسألون اصحابها ، بالحيلة والدهاء ولكنهم لم يجدوا لسنان أثراً حتى ان معظم اهل الحي كانوا يجهلون من هو . وأعادوا السؤال ، ثلاث مرات ، في ثلاثة ايام ، ثم خرج الامير بنفسه فلم يكن أسعد حظاً من ولديه . فقال لعبدالله : لم يبق الا ان اخفي وجهي بين يدي خجلاً منك فقد انتهى امرك بالخيبة في حي بني سليم وهذه اول مرة تسألني فيها قضاء حاجة لك .

– . ولكن ليس عليك ذنب في هذا واني احفظ لك هذا الفضل .. والآن فنحن نرحل .

– . في مثل هذه السرعة ؟

– . أجل !

– . الى أين ؟

– . لا تسألني عن هذا فأنا لا اعلم الى اي بلد أسير .. بلى ، اعلم ان العاطفة

لي عليّ ان اجيء الى هذا القطر ثم انتقل منه الى قطر آخر حتى تمر الايام ،وقد
تمر الاشهر والاعوام ، وانا لا حظ لي ، أو ابلغ الغاية .
– وتريد ان اكون من رجالك في هذه الرحلة .
– بل اريد ان تكون عينا على الحي فقد يأتيه سنان في زمن آخر .
قال : هب انه اتاه فأين تكون انت لأكتب اليك ؟
– تكتب الى الاحنف الذي لا يترك مرو .
فوعده بذلك ، وانصرف القوم يريدون احياء العرب بين البصرة والكوفة
لم يلتهون الى الكوفة نفسها وينثنون بعـــد ذلك الى الطواف في العراق كله .
وكان احب الى عبدالله ، ان يقضي عمره بعيداً عن قومه ، من ان يعود وطارق
العاشق يتعثر بفشله . ذلك هو احساس الوالد البار ، وشعوره من الناحيـــة
الاخرى ، بان التهمة التي وجههـــا هو وأخوه الى اليتيمة ، هي اصل البلاء .
فكان طوافه كما رأيت ، مظهراً من مظاهر الندم والاستغفار .
على ان ذلك السفر الشاق ،وذلك الطواف المضني ،لم يكونا مثمرين ،فالقوم
في الغرب واليتيمة في الشرق ، وقد مرت الاشهر كما قال عبدالله ، ثم انقضى العام
دون ان يسمعوا جواباً واحداً عما يسألون .
وطارق يذوب شوقاً وغراماً ، ولكن دون ان يهدأ او يمل حتى انهم زاروا
احياء العرب جميعها لم يتركوا منها حياً واحداً . . .ولم يبق الا ان يجعلوا وجهتهم
احياء الفرس . وكانت اخبارهم تنتهي الى الاحنف كل شهرين ، فتضطرب نفسه
لهذا الفشل المستمر ، ثم ينسى بعد ذلك ما سمع ، وينصرف الى الاهتمام لما يصل
اليه من اخبار الفتنة التي تمتد اصابعها في الاسلام اما اليتيمة فكانت قد امست
في مرو ، فتى يقال له شهريار كما مر ، ولكن ذلك الفتى صاحب الضفائر الطويلة
المرسلة الى وجهه وكتفيه .. ذلك الفتى الجذاب الملامح ،الساحر العينين لم يكن
من اولئك الفتيان ، الذين يخرجون الى الصيد ، والى ميـادين السباق .. بل لم
يكن طيش الشباب وزهوه ، ظاهرين في احتجابه وظهوره ، ورواحه ومجيئه .
كأنه زاهد ليس للحياة قيمة في نظره . وتستطيـع ان تقول ، ان الناظر اليه ،
لم يكن يقرأ الحياة الا في عينيه . ! فهو كالصنم ألبسته السكينة ثوبها الفضفاض.
ويقول الناس الذين تجاور منازلهم منزله ، انهم لم يسمعوا له صوتاً ولم يروا غير

الجانب الاعلى من وجهه ، حتى وثقوا اخيراً بأنه لا يطيق ان يجالس احداً او يوجه كلمة الى احد .

واذا سألوا سناناً وزوجته او العبدين ، قالوا : هذا مولانا احد نبلاء الفرس ، برح به الحزن كما ترون بعد موت ابيه .

ولم يكن فيما يقولونه شيء من الغلو ، فالحزن الصامت يبدو في جميع مظاهره ، والكآبة تخرج بليغة حادة من سحر عينيه . والهزال والضعف ينشبان مخالبهما في جسده ، حتى خيل اخيراً الى سنان ان الموت يدنو منه . وخاف اذا هو سكت عما يراه، ان يمد يده فينتزع روحه. ولكنه كان يصطدم، كلما حدثه بالامر ، بتلك الكبرياء الثابتة التي لا تتزعزع والتي كانت تهدد حياته . وكان مقامه خارج البلد ، في خيام ثلاث له ولمن معه ، تحيط بها مظاهر الفقر الذي لا يلفت النظر .

وقد وفى سنان بما وعد ، فهو يذهب كل شهر متخفياً الى مرو يسأل عن طارق وعن شهريار . ولكنه لم يكن يجسر على الدخول الى قصر الامارة ، خوفاً من ان يسيء الاحنف ظنه به . وكان ينقل الى الفتاة جوابا واحداً هو ان الاثنين لم يرجعا !!

حتى ضاق صدره ورأى ان الاستسلام الى كبرياء اليتيمة عاقبته الهلاك ، فعول على ان يبوح للاحنف بكل شيء ويسأله الكتمان . وليس في عمله خيانة للفتاة، فصدر سنان لا ينطوي على خيانة وإنما كان هنالك اخلاص ووفاء يوحيان اليه بان يفضح الاسرار .

اجل ، لقد رأى مولاته تمشي الى الموت بخطى واسعة فآثر ان يخونها في سرها ، على ان يضيعها الى الابد . وصبر مطمئناً واثقاً ريثما يمر الشهر ، ولم يكن يفكر في ذلك الحين الا في ناحية واحدة هي انقاذ الفتاة التي هي احب الناس اليه. ووسيلة الانقاذ واحدة ، هي ان يهامس الاحنف بما يعلم ، ثم يجمع العاشقين بعد ذلك وينتهي الامر .

وقد رأت اليتيمة شيئاً جديداً في عينيه فقالت له : يظهر ان في صدرك سراً تكتمني اياه .

– وما الذي دلك على ذلك ؟
– هذا البريق الذي يبدو في عينيك .
قال : انه بريق الامل يامولاتي .
– واي امل هذا وانا لا اسمع غير جواب واحد تقوله لي .
– امل رجوع الحبيب الى مرو فقد انقضى عام كامل على غيبته ولا بد من ان يعود .

– اما انا فقد خسرت هذا الامل وهب ان طارقاً رجع اليوم فاليتيمة لا تزف اليه وهي الخائنة وهو الشريف . !!

قال : ستظهر البراءة يامولاتي ظهور الشمس ان شاء الله ، وستمسين زوجة للفتى النبيل الذي يشقى في التفتيش عمن يحب .
فتمتمت قائلة : لا تظهر هذه البراءة الا بعد ان توضع جثة اليتيمة تحت التراب .

ودخلت عندئذ خيمتها لتستسلم ، على عادتها الى البكاء ، وهي لا تعلم انها تلقي بنفسها فيما تصنع ، الى هوة بعيدة الغور . . .

* * *

اقبلت السنة الثالثة والثلاثون ، فغزا معاوية بن ابي سفيان حصنا في ارض الروم ، يقال له حصن المرأة ، فتم له النصر ، وفتح ما جاوره من نواحي ملاطية .

وغزا افريقية ، عبدالله بن سعد بن ابي سرح ، غزوته الثانية ، حين بلغه ان اهلها نقضوا العهد : ثم انتهى الى معاوية ان اهل قبرص ، نقضوا عهدهم كافعل الافريقيون ، واعانوا الروم على الغزو في البحر . فركب معاوية البحر الى قبرص ، ولم يلبث حتى أخضعها بالسيف وقتل طوائف من رجالها وسبى الكثير من النساء . وعندما كانت قبرص تعاني ما تعانيه ، من فظاعة الحروب ، وافريقيا – اقليم طرابلس الغرب – يئن من الالم ، وجنود العرب في الناحيتين ،

يمشون الى الامام ، كان الشر في الكوفة ،وفي غيرها ينتشر ويمتد ، والنار ترسل ألسنتها ولهيبها الى الاقطار ، كلما عصفت الريح ..

وماذا يصنع سعيد بن العاص والي الكوفة والقوم لا يسمعون له ، ولا يصغون الى ما يخاطبهم به ؟ كانوا يطيعونه فعصوه ، وامسى الوجوه الذين هم اركان امارته ، واصحاب الصوت في العشائر ، اعداء له . وقد نشأت هذه العداوة في ليلة اكفهر فيها وجه السماء .

مالك بن كعب الارحبي ، والاسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس ، وما لك الاشتر ، وصعصعة بن صوحان ، واربعة آخرون من وجوه اهل الكوفة كانوا يسمرون عند سعيد ويقضون لياليهم في مجلسه . فقـال سعيد في تلك الليلة وهم يتحدثون بأمر الاسلام : انما سواد العراق بستان قريش . فقال الاشتر : اتزعم ان السواد الذي افاءه الله علينا باسيافنا بستـان لك ولقومك؟ وتكلم القوم مثله ، فقـال عبد الرحمن الاسدي وكان على شرطة سعيد : اتردون على الامير مقالته ؟

وأغلظ لهم ، فقال الاشتر : لا يفوتنكم الرجل . فوثبوا عليـه ووطئوه بارجلهم وطأً شديداً حتى اغمي عليه .

ثم نضح بماء فأفاق ، فقال : قتلني ايها الامير من انتخبت

فقال سعيد : والله لا يسمر عندي احد ابداً .

وجعل القوم يجلسون في مجالسهم ويشتمون سعيداً ، ثم امعنوا في شتم عثمان واجتمع اليهم الناس يفعلون مثلهم حتى كثروا وكادت السيوف تخرج من الاغماد. فكتب سعيد واشراف قومه الى امير المؤمنين يسألونه اخراجهم من الكوفة ، فأمر بان يلحقوهم بمعاوية وكتب اليه : ان نفراً قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم ، فان آنست منهم رشداً فاقبل ، وان اعيوك فارددهم علي . فلما قدموا الشام ، انزلهم معاوية كنيسة يقال لها كنيسة مريم ، واجرى عليهم بأمر عثمان ، ما كان لهم بالعراق وكان يتغدى ويتعشى عندهم ، ثم قال لهم : انكم قوم من العرب لكم اسنان وألسنة ، وقد ادركتم بالاسلام شرفا وغلبتم الامم وحويتم مواريثهم ، وقد بلغني انكم تبغضون قريشاً ، ولو لم تكن قريش ، كنتم اذلة ،

ان ائمتكم لكم جنة فلا تفترقوا عن جنتكم ، وانهم يصبرون لكم على الجـــور ويحتملون منكم المؤونة .

فقال صعصعة : اما ما ذكرت عن قريش فانها لم تكن اكثر العرب وامنعها في الجاهلية فلا تخوفنا بها .

قال : عرفتكم الان ، وعلمت ان الذى اغراكم على هذا قلة العقول ، وانت خطيب القوم ولا ارى بك عقلاً .. ثم قال : اعظم عليك امر الاســـلام حتى لذكرني بالجاهليـــة .. ألا فليخز الله اقواماً عظموا امركم ... ان قريشا لم تعز بالجاهلية والاسلام الا الله عزّ وجل وهي لم تكن اكثر العرب واشدها ، ولكن كانت اكرمها انسابا واحضها احسابا واعظمها اخطاراً واكملها مروءة، ولم تمتنــع في الجاهلية ، والنـــاس يأكل بعضهم بعضاً الا بالله الذي بوأهم حرما آمنا هل تعرفون عربياً او عجمياً او اسود او احمر الا وقد اصابه الدهر في بلده وحرمته؟ الاما كان من قريش، فانه لم يردهم احد من الناس بكيدالا جعل اللهخدهالاسفل، حتى اراد الله ان يستنقذ من اتبـع دينـــه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ، ثم ارتضى له اصحابا خيارهم قريش . ثم بنى هـــذا الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافـــة فيهم ، وكان يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم، افتراه لا يحوطهم وهم على دينه ؟! افٍ لك ولاصحابك . لقد كنت شر قومك يا صعصعة ، حتى اذا ابرزك الاسلام ، وخلطك بالناس وحملك على الامم التي كانت عليك اقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع الى الفتنة !! الا ان الشيطان قد علم انه لا يستطيع ان يرد بكم قضاءً قضـــاه الله او امراً اراده الله وانكم لا تدركون بالشر امراً ابداً الا فتح الله عليكم شراً منه ..

ثم تركهم ومضى ، فلما كان بعد ذلك اتاهم فقال :ان رسول الله ﷺ كان معصوما فولاني وادخلني في امره ، ثم استخلف ابو بكر فولاني ، ثم استخلف عثمان فولاني ، ولم يولني احد منهم الا وهو راض عني ، وانما طلب رسول الله للاعمال اهل الجزاء من المسلمين ولم يطلب لها اهل الاجتهاد والجهل ، وان اللهذو سطوة يمكر بمن مكر به ، فلا تعرضوا لامر وانتم تعلمون من انفسهم غير ما تظهرون .. انظروا فيما ينفعكم وينفع الناس واطلبوا الخير لهم .

فقال صعصعة : لست باهل ذلك ولا كرامة لك ان تطاع في معصية الله .
قال : أليس اول ما ابتدأتكم به ان امرتكم بتقوى الله وطاعة نبيه وان تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ؟
– بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي .
قال : ان كنت قد فعلت فأتوب الى الله وآمركم الآن بتقواه وان تـدلوا أئمتكم على احسن ما قدرتم عليه .
– اما نحن فنأمرك بأن تعتزل عملك فان في المسلمين من هو أحق به منك ، من كان ابوه أحسن قدماً في الاسلام من ابيك وهو أحسن فيه قدماً منك .

قال : اذا كان غيري أحسن قدماً في الاسلام فليس في زماني احد اقوى على ما انا فيه مني .. ولقد رأى ذلك عمر بن الخطاب ، فلو كان غيري اقوى مني لما رحمني ... واني لم احدث حدثاً ينبغي لي معه ان اعتزل عملي ولو رأى ذلك امير المؤمنين لكتب اليّ فاعتزلت عمله . فأسمعوه عندئذ ما لا يحب ، وقد رأى الفتنة تملأ قلوبهم ، وانهم سيسعرون نارها ان لم يتدبر عثمان الأمر . فقام من عندهم وكتب الى عثمان : « سيرت اليّ قوماً ليست لهم عقول وأديان ، أثقلهم الاسلام وأضجرهم العدل ، لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم الفتنـة وأموال اهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ، ثم فاضحهم ومخزيهم ، فانه سعيداً ومن عنده عنهم ، فانهم لا يريدون إلا الشر .

فأمره عثمان بأن يردهم الى سعيد بن العاص بالكوفة . فردهم اليه ، فكانوا حين رجعوا ، أطلق ألسنة وأشد بغضاً .. فضج سعيد منهم بل ضجت الكوفة كلها وسارت الرسل تحمل اخبارهم من جديد الى الخليفة ، فكتب الى سعيد : اذا أتاك كتابي فابعث بهم الى عبد الرحمن ، بن خالد بن الوليد ، وكان عاملاً على حمص .

وكتب الى الاشتر واصحابه : اما بعد فاني قد سيرتكم الى حمص فاخرجـوا اليها فانكم لستم تألون الاسلام واهله شراً والسلام .

فلما قرأ الاشتر الكتاب ، قال : اللهم اسوأنا نظراً الى الرعية وأعملنا فيهم بالمعصية فعجل له النقمة !

وسمع سعيد بن العاص ما قاله ، فخبّر امير المؤمنين ، وامير المؤمنين يحفظ ما يسمعه في الصدر والألم يملأ فؤاده . وسار الاشتر واصحابه الى حمص ، فأنزلهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، الساحل وأجرى عليهم رزقاً . وكان قـد انضم اليهم ثابت بن قيس النخعي ، وكميل بن زياد النخعي ، وزيد بن صوحان اخو صعصعة ، وجندب بن زهير الغامدي ، وجندب بن كعب الازدي ، وعروة ابن الجعد ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وابن الكواء .

وكان ابن الكواء اذا سئل عن معـاوية يقول : انه بعيـد الثرى ، كثير المرعى ، طيب البديهة ، بعيد الغور ، الغالب عليه الحلم ، ركن من اركان الاسلام .

واذا سئل عن اهل المدينة قال : هم أحرص الأمة على الشر وأعجزهم عنه .

وكان يقول عن اهل الكوفة : انهم يردون جميعاً ويصدرون شتى .

ويقول عن اهل مصر : هم أوفى الناس بشرّ وأسرعهم ندامة ، واما اهـل الشام فهم أطوع الناس لمرشدهم وأعصاهم لمغويهم ..

وكثر النفي في ذلك الحين ... النفي السياسي الذي يحدث مثله اليوم وفي كل زمان ومكان . هذا رجل يرفع صوته بالشكوى . فيخرجه عمال عثمان الى بلد آخر ليخمدوا صوته فيزيد ارتفاعاً .. وهذا آخر يهامس النـاس في السوق او في المسجد ، فيظن اولئك العمال انه سيفسد على الخليفـة امره فيأمرون بإبعاده ! حتى تحدثت الوفود واهل المدن بما يرون ، وخرجت الألسنة النامة عن سكوتها تملأ النواحي كذباً وتوغر الصدور .

وقد بلغ عبدالله بن عامر ، وقتئذ ان في عبد القيس في البصرة ، رجلاً نازلا على حكيم بن جبلة . وحكيم بن جبلة رجـل لص ، يتنحى عن الجيوش وهي راجعة فيسعى في ارض فارس ، ويغير على اهل الذمة ، ويتنكر لهم ويفسد في الارض . فشكاه الناس الى عثمان ، فكتب الى عبدالله : ان احبسه فلا يخرجن من البصرة حتى تأنسوا منه رشداً . ففعل عبدالله ما امره به ثم بلغه كما قرأت ، ان رجلاً نزل عليه وقد اجتمع اليه نفر ، فدعا الرجل وقال له : من انت ؟

وكان يدعى عبدالله بن سبا وهو المعروف بابن السوداء .

فقال : رجل من اهل الكتاب رغبت في الاسلام وفي جوارك .

قال : لا حاجة لي الى ذلك ، اخرج عني .

فانصرف ، حتى اتى الى الكوفة . ولكنهم اخرجوه منها الى مصر . وفي مصر جماعة لا تحب عثمان ، كما عرفت . فجعل يكاتب انصاره ، ويكاتبونه ، وتهيأت الافكار لفتنة هوجاء طائشة تلتهم اليابس والأخضر ، وبدأ الناس ، في كل اقليم ، وكل بلد ، يرون طلائعها بادية على الوجوه ، ويستمعون الدعوة اليها تتناقلها الافواه . وقد عرف القوم ، في جميع الاقطار ، ان اعداء امير المؤمنين سيجتمعون ، وقد يمثلون بين يديه في المدينة ، ليذكروا له جميع ما يفكرون فيه ، من نواحي الاصلاح في الدولة ...

***

- ٦٦ -

انقضى ذلك الشهر ، الذي جعل سنان آخره ، موعداً للذهاب الى مرو الروذ ، حاملاً الى الاحنف اخبار اليتيمة الساحرة . وكان قد ضيّع صبره ، وخاف ان يمد الموت يده الى مولاته قبل ان يعود طارق ويتلاقى الحبيبان . فلما همّ بالذهاب قال لليتيمة : قلبي يحدثني بأني سأرى طارقاً ..

- اما انا فلا اؤمن بالأحاديث التي يهامسني بها القلب ...

لقد نسي طارق ابنة شهريار وهو يبحث اليوم عن فتاة تليق به وتصلح للانتماء الى قومه ..!

- بل هو يبحث عن الفتاة التي اختارها لنفسه ولا يطيب له عيش إلا اذا اجتمع الشمل .

قالت : لو عرف اني في مرو ، لانتقل الى العراق فراراً من الخائنة التي ارادت ان تجعل السم في طعامه ، وطعام عمه وابيه .

قال : انها ذكرى مؤلمة يا مولاتي فانسي ما مضى .

- وكيف انسى ، وقد سمعت التهمة تقذف بها شفتاه : ورأيت الدموع ،

دموع القهر ، تتلألأ في عينيه .

– بلي هي دموع الحب الذي لا يبـــالي بالتهم ، ولا يصدق الاكاذيب التي تنقل اليه .

– اجل ، وانه لحبٌ ذلك الذي يدفع صاحبه الى الطواف في الاقاليم باحثاً عن حسناء يتخذها زوجة له !!

قال : ماذا تقولين يا مولاتي لو عرفت غداً ان طارقاً لا يطلب في طوافه غير اليتيمة ابنة شهريار ؟

– ومن يستطيع ان يثبت هذا ؟

– انا ... ثم تلمسينة باليدين .

قالت : انظر عندئذ في الأمر من ناحية اخرى .

– ما هي ؟

– هي ان اصفح عما بدر منه ، واسأله ، باسم الحب ، الذي جعلنـــا نفساً واحدة ان يتزوج سواي !!

– وما معنى ذلك ؟

– معناه اني لن اطمع بالحياة ، بعد هذا الضعف الذي انتهيت اليه ..

– بل تكون الحياة مجالاً للعيش الطيب والأمل الضاحك .

وحوّل وجهه ليمسح دموعه ثم قال : اني ذاهب الآن وسأحمل اليـــك بعد رجوعي ان شاء الله اخبار الحبيب الباقي على العهد ...

وخرج دون ان يزيد كلمة وكان يقول في نفسه : الويل لي ولطارق اذا جار القضاء.وأنشب الموت في هذا الغصن النضير مخلبه الدامي .

وظل يردد قوله والخوف يملأ فؤاده حتى قدم مرو ووقف ببـــاب الاحنف يستأذن عليه .

وكان الاحنف مضطرب الذهن لما يسمعه من اخبار الفتنة . فلما دخل سنان جعل يتفرس فيه ثم قال : والله انـك لسنان مولى شهريار الخراساني .. ونهض فوضع يده على كتفه وتمتم قائلاً : اني غير مخطىء فأنت هو ... فحنى الرجـل رأسه وقال : أجل اني سنان يا مولاي .

– وكيف خرجت من مرو ؟
– كما يخرج جميع الناس في كل يوم وكل ليلة .
وكان قلب الاحنف يرقص في صدره من الفرح فقال : وأين اليتيمة ؟
– في موضع قريب من مرو لا يخطر لأحد انها فيه ثم قال : أراك تسأل عن الفتاة يا مولاي ولا تسأل عن ابيها ..
– أجل فقد ضيعت يتيمتك ولم أضيع شهريار ..
– وهل وجدته يا مولاي ؟
فعرف الاحنف عندئذ ان الرجل لا يعلم شيئاً من امر مولاه فقال : نعم وجدته ولكني لم أره ...
– وفي أي بلد هو ؟
فابتسم قائلا : من الرأي ان تدلني اولاً على البلد الذي تقيم به الفتاة ثم تعرف بعد ذلك كل شيء .
قال : لقد اتيت الآن يا مولاي لأدلك على ما ترغب فيه .
– اذن قدمت مرو من اجل هذه الغاية .
– نعم لو لم تكن هذه غايتي لما طاب لي ان استأذن عليك وأمثل بين يديك في هذه الساعة .
– وما الذي دعاك الى ذلك وقد مضى عليك اكثر من عامين وانت وراء الحجاب ؟
– رأيت الموت يمشي بخطى متثاقلة فخفت ان يضرب ضربته وانا لا استطيع الدفاع ..
قال : لا يجسر هذا الموت على الدنو منك ..
– ولكنه يجسر على الدنو من الفتاة التي افديها بدمي .
قال : ويلك وهل تذكر الموت عندما تذكر ابنة .. شهريار ؟
– أجل يا مولاي اذكره كلما ذكرتها وانا خائف من ان ينتهي الأمر بما اكره ، وبما ينغص العيش على طارق ابن اخيك .
قال : يخيل الى من يسمع قولك ان الفتاة على فراش الموت ..

– لا يا مولاي انها تروح وتجيء ولكن الموت يكمن لها في ثوبها وهي تحس ...

قال : خبرني بما جرى لها ولا تحدثني بالألغاز ... أين هي الفتاة اليوم ؟

– في مرو الاولى يا مولاي .

قال : كذبت فعبدالله وطارق لم يجدا لها في مرو أثراً .

– لقد خرج الاثنان من مرو قبل ان ندخلها نحن .

قال : تركتما هذا البلد الى منزل شهريار على الشاطىء أليس كذلك .

– بلى !

– ثم ماذا ؟

– ثم انصرفنا منه نريد البصرة ومنها الى الخليج .

– وهذا كذب ، فاليتيمة لم تذهب الى الخليج كما ذكرت .

– قلت انها ارادت الذهاب اليه ، ثم عدلت عنه ، وقد رأيت طارقاً وعبدالله ورأتهما هي ، ونحن راجعان ..

وقص عليه حكاية الخيمة ، واستخفاء اليتيمة في ذلك المنحدر خوفاً من ان تراها العيون .

قال : أتحتجب مولاتك عن الفتى وهي تحبه ؟

– نعم يا مولاي وقد آثرت الاحتجاب على الظهور ليسلم الشرف الذي أهين ولو اختنق ذلك الحب !

قال : أمرتك بأن تكون صريحاً فلم تفعل .

– بل فعلت وانا أخبر الامير الآن كل شيء .

– وأي شأن للشرف بما جرى ؟

قال : أتهمت اليتيمة بأنها خائنة ، بل أتهمت بأنها قاتلة وهي تحمل السم لتجعله في طعامك وهذا يكفي !

فوضع الأمير يده على جبينه وقال : صدقت فقد وجهت اليها هذه التهمة من قبل .

– واليوم ؟

– اما اليوم فقد ثبت لنا ان الذي سعى بها كان تماماً كاذباً ، وانهـا البريئة التي يجب ان تتلاشى عند قدميها التهم والظنون .

فتنهد قائلا : الحمد لله فقد نجت الآن ، والأمير وحده يستطيع انقاذها مما هي فيه ...

قال : سأقول لها اني كنت مخطئاً فيما فعلت فينتهي الأمر .

– بل تقول لها يا مولاي ان طارقاً تعجل في أمره ، وقد ندم على ما جرى وخرج الى الاقاليم يسأل عنها ليعيدها اليه .

قال : سأفعل ذلك وستعود اليها العافية ان شاء الله .

قال : أخشى ان يسبقنا اليها الموت !

– اما انا فلا اخاف هذا الموت لأن الحب سيظفر به ، ألم تقل انها في مرو ؟

– بلى يا مولاي .

– وكيف ضيّعها ماهويه وقد اوصاه عبدالله بأن يجعل عيونه في الاحياء ، من اجل هذه الغاية ؟

– لا يستطيع طارق نفسه ان يعرفها يا مولاي .

– لماذا ؟

– لأنها أمست جسماً دبّ الفناء فيه ، وهنالك شيء آخر هو انها تلبس في مرو لباس الفتيان .. ثم قال : متى يعود طارق ؟

– انه في بلاد خراسان وسيعود عندما اكتب اليه .

قال : لي سؤال آخر يا مولاي .

– سل ما تشاء .

– رأيت مع الأميرين ، في تلك الخيمة التي ذكرتها لـــك رجلين فارسيين احدهما برسي احد خصيان الملك فأي شأن لها ؟

وكانت الدموع عندئذ تجول في عينيه . فقال الاحنف : اما الرجـل الآخر فهو خراذمهر صاحب جبل الزهاد وقد كان برسي اسيراً عنده بأمر يزدجرد !

– بأمر يزدجرد ، وبرسي من خصيان بلاطه ؟؟

– أجل فقد انتهى اليه انه امسى مسلماً فجعله في قفص .

– وكيف نجا منه ؟
– بفضل خراذمهر نفسه الذي اصبح عوناً للعرب ...
– ومولاي شهريار ؟..
قالها وسبقه الدمع ..
فقال : يرقد مولاك شهريار في وادي خواست وتجري فوق جثته التيقطعتها السيوف مياه الشتاء ..
فجعل يشهق بالبكاء ... حتى خاف اخيراً ان يغضب الاحنف ، فقال : ألا تقص عليّ يا مولاي خبر موته ؟
– اقول لك كلمة واحدة هي ان يزدجرد رأى ان يستريح منه ففعل ، وقد ذهب المسكين ضحية وفائه .
فرفع عينيه الى السماء وجعل يقول : ارحم اللهم اليتيمة الشقيـة التي دفن سرها مع ابيها ..
قال : لقد فضح موت شهريار جميع الاسرار .
– ومن باح بها يا مولاي ؟
– وصيته التي كتبها قبل ان يلفظ الروح .
– وهل يريد مولاي ان يذكر لي شيئاً منها ؟
– سأذكر كل شيء للفتاة وانت حاضر .. قل الآن بأي حي تقيمان ؟
– نقيم خارج البلد في خيام ثلاث .
قال : ترجع انت غداً عند الصباح ، وألحق بك انا بعد يومين فأرى مولاتك واحملها على الرجوع الى مرو .
– ولكنها لا تعلم اني حدثتك بهذا ..
– وتريد ان تكتمها ذلك ؟
– نعم !
– اذن سأقول لها ان الاقدار قذفت بي الى مرو وهي التي مهـدت لي سبيل اللقاء .
– اما انا فأقول لها ان طارقاً سيعود بعد بضعة عشر يوماً واني سمعت ذلك

من بعض المقربين اليك .

فوقف قائلاً : قم فانصرف ولك ان تقول ما يخطر لك .

وخرج من قاعة الجلوس ليكتب الى عبدالله ويدعوه الى التعجيل في الرجوع

وكان سنان يفكر وهو في الرواق، فيما سمعه من الاحنف ، وهو لا يستطيع ان يتبين سراً واحداً من اسرار مولاه .

* * *

- ٦٧ -

لقد عرفت اليوم يا مولاتي ما أردت ان اعرفه . وكانت الكآبة تغمر وجه اليتيمة ، والخيبة تبدو في عينيها الفاترتين ، حتى لتظن ان تينك العينين صورة بليغة من صور الالم ، فقالت : ماذا عرفت ؟

فقال سنان :لقد كان خروج عبدالله وطارق من مرو، من اجل غايةواحدة هي البحث عنك كما كنت اقول .

— انها نغمة سمعتها من قبل ويطيب لك ان تعيدها اليوم لتنقذ هذا القلب من هوة يأسه .

قال : سمعتها يامولاتي في مرو ولم اسمعها قبل اليوم .

— ممّن ؟

— من رجل قربه الاحنف اليه وهو لا يفارق مجلسه .

— اتقسم لي ؟

— اقسم بهذا الاخلاص الذي يملأ صدري اني صادق .

— وكيف يتهمني القوم ثم يخرجون في أثري بعد ذلك .

— لاتذكري هذه التهمة يا مولاتي فهي سبب البلاء .

— بل هي الموت الذي يدنو مني كما ترى ... لقد ترك ابي مرو ولم يعد واني لا اعلم احي هو ام ميت .. ثم اقبل طارق الذي وهبت له قلبي ، يحدثني بالتهم ويقول اني خائنة قاتلة كأنه يريد ، من وراء الستار ، ان يقتل في صدري هـذا الغرام الذي بحت به ، ثم تجيء انت فتقول لا تذكرى هذه التهمة فهي سبب

البلاء كأني في نظرك حجر اصم ليس له قلب ولا شعور له !!!

– يكفي ان تعلمي ان الندم استولى على طارق وهو الذي دفعه الى ترك الجيش والطواف في الاقاليم .

– ويكفي ان تعلم انت ان هذا الجرح لا يبرأ واني لا أجد الراحة الا بالموت ! !

– واذا جاء طارق غداً وجثا على ركبتيه قائلاً لك : لقد اخطأت واني مقيم على العهد ؟

– لا يرى طارق من اليتيمة ، عندما يجيء ، غير جسد واه لا قوة له ، او جثة غيّبها القبر .

– اذن فخير لطارق ان يقضي العمل كله بعيداً عن قومه من ان يعود فيرى ما تقولين . .

– اجل ، انه يذكر ، اذا رجع ، هذا الغرام الذي لا يفكر فيه اليوم .

قال : لم ارد هذا يا مولاتي !

– وماذا اردت ؟

– اردت ان اقول ، انه سيموت ، عندما يرى القضاء انتزع يتيمته من يده، ويموت بعده ابوه عبدالله .

– بل يعيش لفتاة اخرى لا تكتنفها الاسرار ،ولا يخطر لها ان تقتله بالسم، خدمة ليزدجرد الفارسي !

وخرجت من خيمتها قائلة : لا تحدثني بهذا بعد اليوم فأنا لا أستطيع ان احتمل . فرفع عينيه الى السماء وجعل يتمتم قائلاً : لا ينقذها غير الاحنف فأرسله يا الله .

* * *

– ٦٨ –

في السنة الرابعة والثلاثين ، خرج سعيد بن العاص من الكوفة يريد المدينة ليسأل امير المؤمنين رأيه ، في اولئك الرجال الخارجين عن الطاعة ، والذين

يكاتبون انصارهم في كل بلد ليعيبوا الخليفة ويسبوا عماله .

وكان قد جعل قبل خروجه ، بسنةوبعض اخرى ، الاشعث بن قيس عاملاً على اذربيجان ، وسعيد بن قيس على الري ، والنسير العجلي على همذان والسائب ابن الأقرع على اصبهان، ومالك بن حبيب على ماه وحكيم بن سلام الخزاعي على الموصل وجرير بن عبدالله على قرقيسيا ، وسلمان بن ربيعة على الباب ، وجعل القعقاع بن عمرو على الحرب ، وعتيبة بن النهاس على حلوان . وخلت الكوفة عندئذ من الرؤساء والقواد . فخرج رجل يدعى يزيد بن قيس وحوله الرجال الذين كاتبهم ابن السوداء اليهودي يريدون خلع عثمان . فتصدى القعقاع ليزيد قائلاً : ماذا تصنع ؟

قال : انما نستعفي من سعيد بن العاص فنحن لا نطيق ان يبقى على الكوفة.

– ومن تريدون والياً سواه ؟

– نريد ابا موسى الاشعري .

قال : اما هذا فنعم ونحن لا شأن لنا به فخبروا امير المؤمنين .

فكتب يزيد الى اعداء عثمان ، النازلين في حمص ، عند عبد الرحمن بن خالد وقد عرفت من هم . فاقبلوا وسبقهم الاشتر الى الكوفة والناس في المسجد فوقف بالباب وجعل يقول :

جئتكم من عند امير المؤمنين عثمان ، وقد تركت سعيد بن العاص يريده على نقصان نسائكم على مئة درهم ، وردّ اصحاب البلاء منكم الى ألفين ، ويزعم ان هذه الارض بستان قريش ... فاستخف الناس بما يقول ، وجعل اهل الرأي ينهون القوم فلا يسمعون لهم ولا يرجعون عما يقولون . ثم قام يزيد فنادى : من شاء ان يلحق بيزيد بن قيس لرد سعيد بن العاص فليفعل ! فبقي اشراف الناس في المسجد .

وكان عمرو بن حريث يومئذ ، خليفة سعيد ، فصعد المنبر وأمر الناس بالاجتماع والطاعة ونهاهم عن الفتنة . فقال له القعقاع : أتردّ السيل عن الجري ؟ هيهات لا والله لا يسكت الغوغاء إلا السيوف ويوشك ان تخرج من الأغماد فاصبر ..

قال : أصبر .. وتحول الى منزله .

فلما رأى القوم ان القعقاع لا يلين ، خرجوا الى موضع قريب من القادسية ، يقال له الجرعة ، ينظرون في الأمر . ثم رأوا ان يرسلوا احـدهم الى عثمان يسأله ان يصلح الحال قبل ان تشتعل النار ... ولم يلبثوا حتى بعثوا بعامر بن عبدالله التميمي الذي يقال له عامر بن عبد القيس .

وكان جريئاً وصاحب رأي .

فقدم المدينة ثم دخل عليه فقال : « ان ناساً من المسلمين اجتمعوا ونظروا في اعمالك فوجدوك قد ركبت اموراً عظاماً فاتق الله وتب اليه » .

فقال عثمان لمن حوله : « انظروا الى هذا فالناس يزعمون أنه يقرأ القرآن ووالله ما يدري اين الله » .

قال : « بلى والله اني لأدري ان الله بالمرصاد » .

قال : ابقَ بالمدينة ريثما ارى رأيي .

وارسل في ذلك اليوم ، الى معاوية في الشـام ، وعبدالله بن سعد في مصر ، وعمرو بن العاص في فلسطين ، وعبدالله بن عامر في البصرة ، يدعوهم اليـه ويستعجلهم في المجيء.

فلما اجتمعوا قال : ان لكل امرىءٍ وزراء ونصحـاء ، وانتم وزرائي ونصحائي واهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا اليّ ان أعزل عمالي وارجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم .

فقال والي البصرة : أرى لك يا امير المؤمنين ان تشغلهم بالجهاد عنك حتى يذلوا لك ولا يكون همّ احدهم الا في نفسه وما هو فيه .

وقال سعيد والي الكوفة : احسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف ، ان لكل قوم قواداً ، متى يهلكوا يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

فقال عثمان : ان هذا هو الرأي لولا ما فيه ...

اما معاوية فقال: اشير عليك بأن تأمر امراء الاجناد فيكفيك كل امير منهم ما قبله واكفيك أنا اهل الشام ..

وقال : والي مصر : ان الناس اهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم .

ثم قام عمرو بن العاص فقال : يا امير المؤمنين ، انك قد ركبت الناس بمثل بني امية ، فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا فاعتدل او اعتزل فان أبيت فاعتزم عزماً .

فقال : اهذا هو الجدّ منك ياعمرو ؟

فسكت عمرو حتى تفرقوا ، فقال : والله يا امير المؤمنين لأنت اكرم عليّ من ذلك ، ولكني علمت ان بالباب من يبلغ للناس قول كل رجل منا ، فأردت ان يبلغهم قولي ، فيثقوا بي ، فأقود اليك خيراً وادفع عنك شراً . وفي قول عمرو من الدهاء ما فيه .

فرد عثمان عندئذ عماله الى اعمالهم ، وأمرهم بتجهيز الناس في البعوث ، وعول على انيزيد عطاياه ليطيعوه وأمره سعيداً بان يرجع الى الكوفة . فسبقه عامر بن عبد القيس الى الجرعة وخبر قومه .

فلما انتهى سعيد اليها قالوا له : ارجع الى المدينة فلا حاجة لنا إليك .

قال : كان يكفيكم ان تبعثوا الى امير المؤمنين رجلاً يطلب إليه ذلك. قالو: لقد فعلنا ما خطر لنا فانصرف . فآثر الرجل الرجوع الى الحجاز ، والامن يبسط ظله على نزوله الكوفة والناس لا يريدون ان ينزل.. وكان وراءه مولى له على بعير ، فسمعه الاشتر يقول : ما كان ينبغي لسعيد ان يرجع . فقتله ، وسيده القائد الى الحجاز لا يعلم . ومثل سعيد بين يدي عثمان فخبره بما فعلوا .

قال : وماذا يطلبون ؟

– يطلبون البدل وانهم يختارون ابا موسى ..

قال : نفعل لهم ما يريدون .

وولىّ عليهم ابا موسى وكتب اليهم : « أما بعد فقد أمرّت عليكم من اخترتم ، ونحيت سعيداً ، ووالله لأقرضنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري، فلاتدعوا شيئاً احببتموه لا يعصى الله فيه الا سألتموه . ولا شيئاً كرهتموه لا يعصى الله فيه استعفيتم منه ، حتى لا يكون لكم على الله حجة ولنصبرن.كما امرنا حتى

تبلغوا ما تريدون . كتب كتابه ، وجعل ابا موسى اميراً ، وهو يظن ان الاصوات قد خمدت ، وان الامر قد انتهى . ولكن القـــوم لم يسكتوا ، الا لينظموا صفوفهم من جديد ، ويستعيدوا القوى وكانت الافكار قد اضطربت ، وتمشت روح الفتنة في الصدور .

واقبل الناس الى المدينة يحدثون اشرافها بأمر عثمان ويسألونهم ان يتدبروا الامر او يلجأوا الى السيف !!! وكتب بعض اصحاب رسول الله وغيرهم ، الى البعض الاخر قائلين : اقدموا فان الجهاد عندنا ... وعظم امر الناس على عثمان ونالوا منه ، وليس هنالك احد من الصحابة ينهاهم عن ذلك الا نفرٌ منهم ،بينهم زيد بن ثابت ، وأبو اسيد الساعدي ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ! ثم اجتمع القوم فكلموا علي بن ابي طالب .

فدخل علي على عثمان فقال : « الناس ورائي وقد حدثوني بأمرك ، ووالله ما ادري ما اقول لك ولا اعرف شيئاً تجهله ، ولا أدلك على امر لا تعرفه .. انك لتعلم ما اعلم ، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه .. ثم قال : لقد رأيت وصحبت رسول الله ﷺ وسمعت منه ونلت صهره ، ولم يكن ابن ابي قحافة « ابو بكر » اولى بالعمل منك بالحق ، ولا ابن الخطـــاب اولى بشيء من الخير منك ، وانت اقرب الى رسول الله رحماً وقد نلت من صهره ما لم ينالاه وما سبقاك الى شيء ، فالله الله في نفسك فانك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهالة ،وان الطريق لواضح بين ، وان اعلام الدين لقائمة ، اعلم يا عثمان ، ان افضل عباد الله امـــام عادل ، وشرّ الناس عندالله ؛ امام جائر ضل واضل فأمات سنة معلومة واحيا سنة متروكة واني احذرك الله وسطوته ونقمته فان عذابه شديد أليم ،واحذرك ان تكون امام هذه الامة الذي يقتل فيفتح عليها القتل الى يوم القيامة ويتركها شيعاً لا تبصر الحق .

فقال عثمان: قد علمت الذي قلت ووالله لو كنت مكاني ما عنفتك ولا اسلمتك ولا عبت عليك امراً ، اترى اني اتيت منكراً ، اذا وصلت رحمـــاً ، وآويت ضائعا ، وفعلت ما كان عمر بن الخطاب يفعل مثله ؟ انشدك الله ياعلي ، أليس المغيرة بن شعبة مع القوم ؟

قال : بلى !

– ألا تعلم ان عمر ولاّه وهو نسيب له ؟

– بلى !

– وكيف تلومني اذا وليت عبدالله بن عامر في رحمه وقرابته ؟

قال : كان عمر ، يدعو اليه عامله ، اذا بلغه كلمة واحدة عنه ؛ ويبلغ به اقصى العقوبة وانت لا تفعل ذلك ، بل ضعفت ورققت على اقربائك .

– وهم اقرباؤك ايضاً ..

– نعم ان رحمهم مني لقريبة ولكن الفضل في غيرهم .

قال : ولى عمر معاوية وانا قد وليته ...

– ولكنك تعلم ان معاوية كان يخاف عمر كما كان يخافه غلامه يرفأ ...

– واليوم ؟

– اما اليوم فان معاوية يقتطع الأمور كلها دونك ، ويقول للناس : هذا امر عثمان ، وانت تعلم ذلك ولا تقول كلمة .

قالها علي وخرج . فخرج عثمان على اثره فجلس على المنبر ثم قال : « امابعد فان لكل شيء آفة ، وآفة هذه الامة ، عيّابون طعانون ، يرونكم ما يحبون ، ويسترون عنكم ما تكرهون وهم امثال النعام يتبعون اول ناعق ... لقد عتم عليّ ما اقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما احببتم وكرهتم ، اما انا فقد لنت لكم ، وأوطأتكم كتفي، وكففت عنكم يدي ولساني فاجترأتم عليّ ... اما والله لأنا أعزّ نفراً واقرب ناصراً واكثر عدداً فكفوّا عني ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم ووالله ما قصرت عن بلوغ ما بلغه من كان قبلي ولم تختلفوا عليه » .

فقام مروان بن الحكم فقال للناس :

ان شئتم حكمنا والله السيف ما بيننا وبينكم .. نحن وانتم والله كما قال الشاعر :

فرشنا لكم اعراضنا فنبت بكم   مغارسكم تبنون في دمن الثرى

قال عثمان : اسكت ودعني واصحابي . ثم نزل عن المنبر ، وألم نفسه مطل من عينيه ..فاشتد قوله على الناس وزاد حقدهم وتألبهم عليه .

***

- ٦٩ -

خرج الاحنف بنفسه يريد مرو الشاهجان . وقد انتهى اليها ،وهو متنكر، عند غروب الشمس ، ومعه غلام يقود فرسا له هي غير الفرس التي يراه الناس على ظهرها في الميادين . وكأنه كان حاضراً ، عندما ضرب سنان خيامه خارج السور ... اجل ، لقد خبره سنان ان هنالك خياماً ثلاثاً لا تبعدالواحدة من الاخرى اكثر من ذراعين . فدنا منها كأنه غريب يسأل الناس ان يجودوا عليه بوسادة يسند اليها رأسه ، وعيناه تنظران الى الاشخاص التي تروح وتجيء. وكان سنان ينتظر قدومه من ساعة الى ساعة ، وهو يفكر في الوسيلة التي يعمد إليها الاحنف للوصول إليه .

وبينا هو واقف بباب الخيمة ، واليتيمة المسكينة ، او شهريار الفتى ، واضع رأسه بين يديه ، أقبل الاحنف فقال : السلام عليك ايها الرجل .

فرفعت اليتيمة رأسهافعرفت الاحنف.فأرخت ضفائرها الى وجهها وحولت نظرها عنه خوفاً من ان يعرفها هو . ولكن قلبها كان يخفق مضطربا كما يخفق على ذكر طارق . اما سنان فكان يتكلف الابتسام وهو يقول : اهلاً بالغريب اللاجيء الى خيام الفقراء ..

قال : اتيت مرو وانا لا اعرف فيها احداً فآثرت النزول خارج السور ريثما يطلع الصبح .. وتكفيني وسادة ...

قال : ادخل ، انك ستنام في فراشي اذا طاب لك ..

– بل انام بالقرب من هذه الفرس كما افعل وأنا في الصحراء .

– لك ان تفعل وانت في الصحراء ما تشاء ، اما هنا فالامر لنا ، وضيفنا لا ينام عند فرسه ...

قال : حلفت ان لايظللني في منامي بيت !!

– في الشتاء والصيف ؟

– اجل ، حتى ابلغ الغاية التي تركت من اجلها ، بلدي واهلي .

– إذن هو نذر .

– نعم ، واني لأرجو ان يقصر الله أيامه ..

قال : يخيل اليّ ان لك ولداً ضيعته الحروب فلا تعلم أحيٌ هو أم ميت.

– وأي شيء اوحى اليك بهذا ؟

– هذا النذر الغريب الذي نذرت .

قال : كان لي ولد فضيعته انا ولم تضيعه الحروب كما قلت .

– وكيف ذلك ؟

– أحب فتاة هي اجمل النساء وجها واكملهن أدبا فلم أشأ الا ان امنعه من هذا الحب واخنق غرامه ..

– ولماذا فعلت ؟

– لانه بلغني ان لهذه الفتاة سراً وان الظنون تحوم حول هذا السر .

– وطردت ولدك ؟

– لم أطرده ، بل خرج يطوف في البلاد باحثا عن الفتاة التي خرجت قبله وانا لا اعلم ..

– وندمت اليوم على ما صنعت ؟

– اجل فقد عرفت سر الفتاة ولكن بعد ان ضيعت الاثنين .

– وتستطيع أن تبوح لي بما عرفت ؟

– خير لي ان احتفظ به فالذكرى مؤلمة .

– وما اسم فتاك ؟

– هذا ايضاً لا ابوح لك به ..

فقالت اليتيمة عندئذ وشفتاها ترتجفان : أتأذن لي ان اسألك ؟

– نعم ، وأنا لنتحدث في هذا الليل بما يطيب لنا .

قالت : ألا تعرف مقرّ ولدك ؟

– بلى اعرفه واعرف اليوم الذي ينتقل فيه من بلد الى آخر ..
– وكيف تقول انك ضيعته ؟
– لو كنت اجهل مقرّه لملأت البلاد عيوناً ورسلاً يحملونه اليّ ولو كان في حضن امير المؤمنين .
– وماذا إذن ؟
– انه لا يعود الى بلده والفتاة بعيدة عنه !
– وهل سألته ان يفعل ؟
– حاولت كثيراً ان احمله على الرجوع فلم يرض ،فهممت اخيراً بأن استعين بامراء الجند ليعيدوه الى ابيه !
– ولكنك قلت انك تطوف في البلاد باحثاً عنه .
– لم اقل هذا قط فأنا لم اترك بلدي من اجله بل من اجل الفتاة التي ذكرت!
قالت : تمنع فتاك من ان يحبها ويمشي وراء عاطفته ثم تخرج مر بلاد قومك لتسأل الناس عنها ؟
– اجل افعل ذلك بعد اطلاعي على السر وبعد ان عرفت انها بريئة مما نسبه اليها كاذب فارسي .
– اذن كانت متهمة ..
– وكان سرها رهيباً خفت معه ان اقذف بولدي الى هوة بعيدة الغور يخسر فيها شرفه ويضيع كرامة قومه .
فتمتمت قائلة : انها شقية جار عليه الزمان ..
ثم قالت : وليس لها اهل ؟
فتردد الامير في جوابه ثم قال : كنا نظن وتظن هي ان لها والداً .. !
فوضعت يدها على قلبها وجعلت تقول : كلمة غريبة لم افهم منها حرفا ..
– لو كنت مكاني ايها الفتى لفهمت كل شيء ...
– وهذا الذي تظن انه ابوها .. اين هو ؟
– لا تسألني عن هذا فأنا لا استطيع ان اقوله الا للفتاة نفسها ..
– وان لم يجتمع الشمل ؟

– ادفن سري في صدري وألحق بولدي حاملاً اليه خيبة الرجـــاء فيبكي غرامه وشقاءه الى الابد .

فأرخت نظرها الى الارض وهي تفكر في ذلك السر الرهيب الذي وعدها شهريار بان يبوح لها به .

اترفع ضفائرها عن وجهها قائلة له : انا اليتيمة فبح لي بسري ، ام تسكت على ما سمعت فتضيع سرها وتخسر طارقاً ؟

انه موقف لم ترَ في حياتها اصعب منه . ولكنها كانت تخاف الزمان الذي لا يصفو لأحد وتخشى ان يخرج الاحنف في الصباح فلا يبقى بعد ذلك امل باللقاء. وهنالك الغرام المبرّح الذي يقودها الى القبر ... فرأت ان تخطو خطـــوة الى الامام ثم تنظر في امرها بعد ذلك فقالت : لي رأي ابديه لك .

قال : هات !

قالت : لو سألك احد الفتيان الان ان تبوح له بجميع ما تعلم وهو يضمن لك انه يسلم الفتاة اليك ، فماذا تقول ؟

فابتسم قائلاً : اهزأ بهذا الفتى لاني اعلم انه لا يستطيـع ذلك .

قالت : عار على الرجل ان يهزأ بالناس دون ان يكون هنالك ما يدفعه الى هذا ..

ان الفتى الذي ذكرته لك يعرف كل شيء ..

قال : اين هو ؟

– هو هنا ..

– فجعل ينظر الى جانبيه وهو يتجاهل الامر .

فقالت : انا هو !!

فقال لسنان : هذا ولدك ؟

– نعم !

– وعلمته ان يستخف باضيافه ؟!

– بل علمته ان يستقبل الاضياف كما يستقبلهم العربي الشريف .

–وكيف يقول انه سيسلم الفتاة الي ؟

– لا ادري كيف يستطيع ان يفعل ذلك ، ولكني واثق بانه اذا وعد وفى
قال : لو عرفت ايها الفتى من انا لما استخفت بي .
كن من شئت فقد وعدت الآن وانتهى الأمر .
– وانت قادر على القيام بما وعدت ؟
– اجل ، كما انت قادر على ركوب هذه الفرس عندما تشاء .
قال : اخشى ان اطلعك على سري ثم لا أرى غير الفشل .
– ولكن النبلاء لا يكذبون وانا منهم ..
– اذن فاسأل فقد وثقت الآن ..
– ماذا يدعى ذلك الرجل الذي كانت الفتاة تظن انه ابوها ؟
– شهريار الخراساني .
– إذن هي فارسية ؟
– فارسية بالأمس ، ومسلمة اليوم .
– وما هي حكاية شهريار ؟
– حكايته انـه كان من المقربين الى يزدجرد الملك وهو في بلاطه ، وكان في ذلك البلاط فتاة أحبها من قبل وأراد ان يجعلها زوجة له ، عملاً بوصية ابيهـا الذي قتل في الحرب . فجعل صدرها يعلو وينخفض ، وجسمها يضطرب .
والاحنف يتظاهر بانه خالي الذهن وكان يقول : على ان يزدجرد لم يرضَ ، بل احتفظ بالفتاة لنفسه وجعلها من حظاياه وهي تحـاول النجاة منه ولا تقدر على ذلك .
قالت : فتاة فارسية ، وتأبى ان تكون حظية للملك ؟
– نعم ، فالحب لا يحترم الملوك والأمراء ، وهي التي أحبت شهريار كما أحبها وآثرت العيش معه على البقاء في ظل الملك ..
– وبعد ذلك ؟
– ملّها يزدجرد ، وكان يحيط حظاياه كلهن بنعمه ، ويحرمهـا هذه النعم ، حتى امست جلداً على عظم .
فتنهدت قائلة : مسكينة ..

– ولكنه لم يكتف بذلك ، بل منعها من ان تمثل بين يديه ، ثم تمادى في قسوته فمنعها من أن تظهر في قاعة أو رواق .

فهمت بأن تقول: انه ظالم .. ولكنها تجلدت، وحبست انفاسها لتسمع ذلك السر الهائل الذي جعل حياتها حياة عذاب وشقاء. وكان الأمير يتفرس في عينيها المختلجتين ، ويصف ببلاغة العربي، جفاء يزدجرد وظلمه، واستهتاره ولهوه وهو على العرش ، ثم قال : ومرّ عام خسر الملك فيه تاجه ، فترك المدائن فاراً من وجه العرب لاجئاً الى حلوان .

وفي حلوان وضعت جهان روز طفلة ..

فجعلت تردد : جهان روز .. جهان روز ..

فقال الاحنف : غير ان الملك لم يصبر ليرى طفلته بل غادر حلوان الى الري قبل ان تخرج الى العالم ، ثم عرف بعد بضعة عشر عاماً ان جهان روز لفظت روحها في ذلك المنزل الذي تركها فيه ..

– والطفلة ؟

– اما الطفلة فقد سلمها احد الرجال الى مرضع من نساء العرب احتضنتها عامين ، ثم احتضنها ذلك الرجل بعد ذلك ..

فقالت وصوتها يختنق : مرضع من نساء العرب ؟!

– نعم !

– واسم هذه المرضع أم عامر زوجة عبدالله بن قيس ؟

– نعم !

– واسم ذلك الرجل شهريار ؟!

– نعم !

– واسم الفتاة .. اليتيمة ؟!

– نعم وقد بقي ان تسلميها اليّ ..

فرفعت ضفائرها ، ثم نزعت تلك القلنسوة القصيرة فبان وجهها الاصفر ، وصاحت قائلة : انا هي !!

وسقطت على الارض ..

واصلح ما افسدت . فسار الرجلان الى الكوفة ، واستعانا على ابي موسى بنفر من اهلها ولكنه آثر الحياد على الدخول في الامر . فرجعا ولم يخرج معها احد من الناس . فنظر امير المؤمنين الى ولده الحسن قائلاً له: نبعث بك انت الى الكوفة مع عمار بن ياسر وانا لنريد ان ترجع وراءك جيش من أهلها ... قم فارحل الساعة .

فانطلقا ، وعتب الحسن ابا موسى قائلاً : كيف تمنع الناس ونحن لم نرد الا الاصلاح ؟ فقال : ان المستشار مؤتمن وقد سمعت رسول الله يقول : انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب وقد جعلنا الله اخوانا وحرم علينا دماءنا واموالنا. فغضب عمار وسبّه، وثار بعض الرجال ، هذا يقول : اطيعوا امير المومنين، وهذا يقول : انها فتنة فاغمدوا سيوفكم والزموا بيوتكم . حتى قام القعقاع بن عمرو ، فارس الميادين ، يدعو الناس الى الخروج والطاعة ، وتبعه فريق من اصحاب النفوذ والجاه ، يقولون مثل قوله ، بينهم عدي بن حاتم طيء ، وهند بن عمرو ، وحجر بن عدي ، وغير هوءلاء .

فاقبلت الجماعات عندئذ تتهيأ للرحيل حتى بلغ عددها اثني عشر الفاً من الرجال عليهم مشاهير القواد . ومشوا يريدون علياً في ذي قار .

فلما انتهوا اليه، رحب بهم وقال : يا اهل الكوفة ، انتم قتلتم ملوك العجم وفضضتم جموعهم حتى صار اليكم مواريثهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من اهل البصرة ، فان يرجعوا ، فذاك الذي نريد ، وان يلجوا داويناهم بالرفق حتى يبدأوا بالظلم ، واننّا لا نترك امراً فيه الصلاح الا آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله

ثم دعا القعقاع فارسله الى البصرة وقال : الق طلحة والزبير وادعها الى الالفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة . فاتى القعقاع البصرة وبدأ بعائشة فقال : اي أم المومنين ، اي شيء حملك الى هذه الناحية ؟

قالت : الاصلاح بين الناس .

قال : ابعثي الى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما .

فبعثت اليهما فجاآ فقال لهما: اني سألت ام الموءمنين عن سبب مجيئها فقالت الاصلاح فما تقولان انتما ، أمتابعان ام مخالفان ؟

قالا : متابعان .

قال : خبراني ما وجه هذا الاصلاح ، فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، وان انكرناه لا يصلح .

قالا : قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركا للقرآن .

قال : قتلتما قتلة عثمان من اهل البصرة ، وانتم قبل قتلهم اقرب الى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة الاف واعتزلوكم وخرجوا من بينكم .

فقالت عائشة : فماذا تقول أنت؟

– اقول ان هذا الامر دواؤه التسكين ، فان انتم بايعتمونا كانت علامة خير وتباشير رحمة، وان ابيتم كانت علامة شر وذهاب هذا المال فآثروا العافية وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له.. وايم الله اني لأقول هذا القول وانا خائف ان لا يتم هذا حتى يأخذ الله حاجته من هذه الامة .

قالوا : اصبت واحسنت فارجع ، فان قدم علي وهو على مثل رأيك صلح الامر وانتهينا منه .

فرجع القعقاع فخبر علياً، فأعجبه ذلك واشرف القوم على الصلح، واقبلت وفود العرب من اهل البصرة الى علي ، يسألون اخوانهم هل الكوفة الرأي ويعلمونهم ان القتال لا يخطر لهم وان غايتهم الاصلاح .

ثم دخلوا على امير الموءمنين فخبروه بخبرهم وجعل هو يسألهم عن طلحة والزبير فقال احدهم وهو يدعى جرير بن شرس : اما الزبير فيقول انه بايعنا كرهاً ، واما طلحة فينشد الاشعار ويقول :

لا أبلغ بني بكر رسولا   فليس الى بني كعب سبيل

سيرجع ظلمكم منكم عليكم   طويل الساعدين له فضول

فخطب فيهم ثم قال :

اني راحل غداً فارتحلوا ولا يرتحلن أحد أعان على عثمان بشيء ... وجعل

الناس يتحدثون بامر الصلح . وهنالك جماعة لا تريده وانما تريد الحرب . وقد اجتمع رجالها ، بعد خروج وفد البصرة ، وجعل كل منهم يبدي رأياً حتى قام ابن السوداء فقال :

يا قوم ، ان عزكم في تلاحم الصفوف ، فاذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تجعلو مجالاً للنظر . وتفرقوا على هذا الرأي وعلي ومن حوله لا يشعرون به .

فلما كان اليوم الثاني ، مضى امير المؤمنين ، وسار الناس وراءه ، حتى نزل على عبد القيس ، وهم بين البصرة وذي قار فانضموا اليه جميعهم ومشى من هناك يريد البصرة . وكانت عائشة ، وصاحباها قد خرجوا على رأس الرجال الى مكان يجاور قصر عبدالله بن زياد ، وقد انتهى امير المؤمنين اليه . وكان ذلك في شهر جمادى الاخرة من السنة السادسة والثلاثين .

* * *

- ٨١ -

عندما انتهى كتاب عائشة الى الاحنف بن قيس ، تدعوه فيه الى الحرب تحت لوائها والطلب بدم عثمان ، دفعه الى طارق ابن اخيه فجعل يقرأ ، وشفتا الاحنف تضطربان وجسمه يهتز ، وقد شعر بان الامر الذي ورد في ذلك الكتاب ، افظع أمر عرض له في حياته .

وكان عندئذ في منزل عبدالله ، وليس في ذلك المنزل غير أهله ، واليتيمة منهم ، وقد امست جلداً على عظم . وكان طارق ، منذ استيقظت الفتنة ، حتى قتل عثمان وبويع علي ، يهم بان يسأل عمه عن ذلك الفريق من رجال الصحابة ، اي رجل يختار . ولكنه كان يميل الى علي وهو لا يعرفه ، ويؤثره على جميع الرجال الذين ذكرت اسماؤهم له .

وقد عز عليه ان يرد معاوية رسول أمير المؤمنين ويستخف بأمره ، وكان يقول في نفسه : لو كنت علياً لجعلت ابن ابي سفيان عبرة لكل مسلم . فلما اطرق الاحنف في تلك الساعة وتجهم جبينه عرف الفتى ان عمه يتردد في الامر

ولا يريد ان يغضب عليـــاً او يغضب زوجة النبي . وصبر لحظة ثم قال : ماذا رأيت يا مولاي ؟

فرفع رأسه قائلا: رأيت خطراً لم أر مثله من قبـــل ولم يخطر لي ان عائشة ومعها الزبير وطلحة ، سيخرجون من الحجـــاز على رأس جيش ويطلبون بدم عثمان !

– ولكنهم فعلوا الآن وانتهى الامر .

– أجل فعلوا ذلك وهم يعلمون ان علياً احق الناس بالخلافة ، واقربهم الى رسول الله ، واسبقهم الى الاسلام .

– تقول هذا يا عم وتتردد في أمرك ؟

– نعم ، فأني ان خذلت ام المؤمنين ومن معهـــا كان ذلك شديداً ، واذا قاتلت ابن عم رسول الله كان ذلك اشد .

فاراد ان يقرأ اسرار عمه : فقال:ولكن القوم ينتصرونلدين الله، ويريدون ان يثأروا بذلك القتيل المظلوم الذي لفـــظ روحه والمصحف في يده ، وانك لتجد معاوية من اتباعهم وقد هزأ برسول علي فجعل يهز رأسه ويقول: اعرف يا بني اشياء لا تعرفها انت وليس من الرأي ان تعلم اليوم ما نعلمه نحن من امور المسلمين .

– لماذا ؟

– لاني اخشى ان يستهويك أمر علي أو امر عائشة وهذا ما لا اريده .

قال : أعدك بأني افعل ما تشير عليّ به .

قال : خير لي ان اكتمك ما في نفسي ، وتسلم من ان ابوح لك بكل ما اعلم وتخسر حياتك .

قال : لست من رجال الحرب يا مولاي ؟

– بلى ، ولكن كنا نحارب الاجنبي ونحاول ان نستولي على بلاده .

فقال عبدالله : اما انا فلي رأي آخر هو ان اطلع طارقاً على كل شيء فقـــد يكون له في ذلك هوى ، اسأل يا بني ..

قال : اسألك عن طلحة والزبير أهما على باطل ام على حق ؟

- انهما على باطل ، وهما يحاربان من اجل غاية واحدة يخفيها الواحد منهما عن الآخر وأكاد ألمسها بيدي الاثنتين .

- وما هي هذه الغاية ؟

- الخلافة !

- يطمعان فيها ؟

- اجل يا بني ، ولو استطاعا ان يجلسا على العرش فوق جثث الناس للعلا ...

- والطلب بدم عثمان ؟؟

- ان هذا الطلب مظهر كاذب لا يفكران فيه ، الا لأنه وسيلة يكثر معها انصارهما من بني أمية واتباعهم ، وشرك يسقط فيه اولئك المترددون في الطاعة والذين لم يبايعوا أمير المؤمنين، ثم قال: لقد كان الاثنان يستطيعان ان يدافعا عن عثمان وهو حي ، ويمنعا رجال الفتنة ، وهم من رجالهما ، من ان يقتلوه .

- ولكن لم يخطر لهما ان الامر سينتهي بقتله .

- بل خطر لهما كل شيء ، وكان كل منهما يظن ان الخلافة ستنقاد اليه صاغرة ولكن المسلمين رأوا علياً فآثروه عليهما ، فتظاهرا عندئذ بانهما ينتصران للدم البريء ، وهما انما ينتصران للمطامع المتغللة في الصدرين .

- وعائشة .

- اما عائشة فقد حقدت على علي لكلمة قالها للرسول بعد غزوة المصطلق وهي تستغل اليوم موقف المسلمين ، ولو كنت الآن قريباً منها لسألتها ان لا تنسى قول النبي لعلي : « لا يحبك الا مؤمن ولا يبغضك الا كافر . »

قال : ارى انك تؤثر علياً على سواه يا مولاي .

- نعم ، وستفعل كما افعل عندما تعلم ان هذا الخليفة الذي يحاربونه ليس في الدنيا كلها ازهد منه، فهو الخليفة الذي باع سيفه في السوق ليشتري بثمنه إزاراً له ، وقد قضى حياته ، في عز الاسلام ومجده ، ولم يلبث ثوباً جديداً ، ولم يتخذ له ضيعة وهو القادر على اقتناء الاموال والقصور والعبيد، كما فعل عثمان وكما يفعل معاوية اليوم. أضف الى ذلك انه اوسع الناس اطلاعاً وعلماً واثبتهم جنانا

واعفهم نفسا .

قال : لقد احسست الآن ان حب علي يتمشى مع دمي .

– وهذا ما اريده؛ فعلي سيد الناس، واني لواثق بان النصر سيتم له على رغم طلحة والزبير اللذين حسداه .

فقال لعمة : ماذا تقول الآن يا مولاي ؟

– اقول ان ما حدثك به ابوك صحيح لا شك فيه .

– وما هو رأيك في الامر ؟

– أرى ان نرحل الى البصرة ونقيم بها ريثما تضمحل هذه الغمامة السوداء ويقوم السلام مقام السيف .

قال : سمعت الآن ان أمير المومنين احق الناس بالخلافة .

– اجل !

– اذن فأي شيء يمنع الاحنف بن قيس ورجـــال عشيرته ، ان ينضموا الى صفوفه في ساحة الحرب ؟

– يمنعهم من ذلك ان زوجة النبي على رأس اعدائه .

– ولكنهـــا ليست على حق ، وعلي امام المسلمين فعلى كل مسلم يهتم لأمر الاسلام ، ان ينتصر له .

– سننتصر له بعد حين يا بني .

– وكيف ذلك ؟

– ان عائشة ستعتزل الحرب عندما ترى ان رجالها لا يستطيعون ان يثبتوا في وجه الامام .

– وماذا يحدث بعد ذلك ؟

– يقوم معاوية من الناحية الاخرى فيشهر على الخليفة السيف ، وتكون عائشة داخل بيتها لا تخرج منه .

– وعندئذ ؟

– يحمل الاحنف عندئذ سيفه ، ويخرج الى قتال امير الشام الذي استخف بسيده ، وطمح ببصره الى العرش .

قال : لنفترض يا مولاي ان السيوف ستتلاحم في البصرة وانت فيها فماذا تصنع ؟

– ارى طلحة والزبير فأقول لهما: لا اقاتلكم ومعكم ام المومنين، ولا اقاتل ابن عم الرسول وقد بايعته .

– وتمكث ببيتك معتزلاً لا لك ولا عليك ؟

– اعتزل حتى ارى ان الخروج الى الحرب امر لا بد منه .

– ومتى ترحل الى البصرة ؟

– غداً فلم يبق لنا ما نصنعه في مرو الروذ ، ومن العار ان نقيم بها ورجال الاسلام في حرب .

فبرقت عينا اليتيمة وتمتمت قائلة : قد اتت الساعة التي ازور فيها قبر امي الملكة ...

فقال الاحنف : بل تمكثين بالبصرة فانت لاتستطيعين الرحيل .

– : ان من يستطيع الذهاب الى البصرة ، يستطيع ان ينتقل منها الى حلوان ، وانا اشعر ان العافية تعود الي ..

فقال في نفسه : اما انا فلا ارى لهذه العافية من أثر ، ثم قال : موعد هذه الزيارة الشهر القادم .

قالت : صبرت حتى مللت وضاق الصدر ...

– : ومع ذلك فانت قادرة على الانتظار شهراً آخر .

قالت : ارى الامير يعللني بالوعود ثم ينسى ما وعد .

قال : ليس لي ان احول بين الاميرة وبين ماترغب فيه ... ولكني اخشى ان يزداد هذا الضعف فتسوء العاقبة .

قالت : يخيّل اليّ ان الضعف سيزول عندما اجثو على التراب الذي ترقد امي المسكينة في جوفه ..

– . اكتفي الآن بزيارة قبر الملك ، على ان تزوري القبر الآخر عندما يصفو الجو وتتفرق الجيوش ..

قالت : ليس لي شأن مع الجيوش التي ذكرت .. إني فتاة شقية صرع الموت

امها يوم خرجت الى العالم ، وقتل ابوها قبل ان تعرفه وقبل ان تراه .. وهذا يكفي ..

قال : لقد قضي الامر الآن .

— . نعم قضي الامر ولم يبق الا ان ارى عظامها البالية واسقي بدموع اللوعة والاسى تراب القبرين .

والتفتت الى طارق قائلة : رحمة قبل ان اموت . فتفجرت دموع الفتى ثم قال : استأذن مولاي في الذهاب غداً قبل الخروج الى البصرة .

— . الى اين يابني ؟

— . الى بابان فترى اليتيمة قبر ابيها الملك ، ثم نأتي البصرة ونرحل منها الى الاقاليم .

— . وما هي الغاية من ذلك ؟

— . الغاية منه ان نذهب جميعنا الى حلوان فأسأل علياً عندئذ ان يجعلني عاملاً له عليها .

فعرفت الفتاة ان الاحنف يعللها بالمنى ، فقالت : ومن قال لك ان امير المؤمنين يرضى بذلك ؟

— . ألجُّ في الطلب فيرضى .

— .واذا أغمض الموت عينيَّ قبل ان تفعل ؟

فنظر الى اخيه كأنه يسأله رأيه ، فقال عبدالله : لي كلمة اقولها لك في الرواق . فنهض الاثنان حتى انتهيا الى الخارج ، وكان عبدالله يقول : يجب ان يوضع حدٌ لما نرى .

قال : ماذا ؟

— . نزوج طارقاً ثم يذهب مع زوجته الى بابان وحلوان وينتهي الامر .

— . وكيف تزوجه فتاة سيضع الموت يده عليها بعد حين ؟

— . خير له ان تموت بعد الزواج من ان تموت قبله ، ومع ذلك فالموت بيد الله وقد تعيش مئة عام .

قال : ليس لنا ان ننظر في هذا الآن .. اني اخشى ان انغص على الفتى عيشه بعد زواجه .

– . وانا اخشى ان انغص عليه هذا العيش بعد ايام فمن الرأي ان نزفها اليه ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء .

فقال : ادعُ طارقاً .

فلما اقبل قال له الاحنف ، ألم تقل لي من قبل انك لا تتزوج اليتيمة الا بعد ان يشفيها الله ؟

– . بلى !

– . ولكن اباك يريد ان يتم الزواج اليوم .

فتنهد ثم قال : اخاف ان تمتد ايام هذا الضعف فأملّ الانتظار .. اني من رأي ابي فليكن الزواج اليوم .

فكره ان يذكر الموت امامه فقال : ولا تخاف ان يعود المرض فتزداد ضعفاً ؟

فرفع عينيه الى السماء قائلاً : لقد سلمت امري الى الله القادر على كل شيء .

– . وتريد اليتيمة ما تريده انت ؟

نعم يامولاي !

فأطرق الاحنف ملياً ثم قال : اذن يتم الزواج في هذا الليل وتذهب مع زوجتك عندما تشاء ، الى حيث تشاء ، على ان تعودا الى البصرة فتسألا عنا عاملها عثمان بن حنيف .

ودخل الجميع عندئذ وقال عبدالله : ستمسين في هذه الليلة زوجة لطارق ثم لسيرين بعد ذلك الى بابان وحلوان .

فحنت اليتيمة رأسها ولم تقل كلمة . ولكنها كانت تذرف الدموع .

* * *

– ٨٢ –

اصبح امير المؤمنين على ظهر فرسه ، ومضى معه الناس حتى نزل على بني عبدالقيس فانضموا اليه . ثم سار من هناك فنزل مكانا يقال له الزاوية وانتقل منه بعد ايام يريد البصرة . وكان طلحة والزبير وعائشة قد خرجوا الى ضواحي

المدينة . فلما نزل الجيشان تركت طائفة من بني بكر بن وائل وعبد القيس ، حيث عائشة ولجأت الى علي . فقال الناس : من كان هؤلاء معه لايغلب !

وكان رجل يدعى ابا الجرباء يقول للزبير : ان الرأي ان تبعث الف فارس الى علي قبل ان يصل جيشه كله ، فقال له : ارجو ان يتم لنا الصلح فـــابشروا واصبروا .

وطلب الاعور بن بنان المنقري الى علي ان يهاجم القوم ، فقال : لا فلعـل الله يجمع شمل هذه الامة ..

قال : فان لم يجيبونا ؟

قال : تركناهم ما تركونا .

— . وان لم يتركونا ؟

— . دفعناهم عن انفسنا .

ثم خطب قائلاً : ايها الناس امسكوا عن هؤلاء القوم ايديكم وألسنتكم .

وبعث الى عائشة حكيم بن سلامة ، ومالك بن حبيب يقولان لها ولصاحبيها : ان كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفّـوا حتى ننزل وننظر في هذا الامر .

فقالوا : نحن على العهد .

ومرت بضعة ايام لاقتال فيها ، ثم جاء الأحنف بن قيس فمثل بين يـــدي عائشة وعندها الزبير وطلحة فقال : لأي امر جئتم ؟

قالوا : نطلب بدم عثمان .

فقال يا ام المؤمنين ويازبير وياطلحة نشدتكم الله، أقلت لـــكم من تأمرونني ابايـع، فقلتم بايـع علياً ام لا؟

قالوا : نعم ولكنه بدّل وغيّـــر .

قال : لا اقاتلـــكم ومعكم ام المؤمنين ولا اقاتل علياً وهو ابن عم رسول الله وقد امرتموني ببيعته ولكني اعتزل .

قالوا : اعتزل .

وكان نازلا مع قومه ، في موضع يبعد عن البصرة فرسخين .

فخرج من مجلسهم واتى علياً فقال : ان قومنا بالبصرة يزعمــون انك اذا ظفرت بهم غداً قتلت رجالهم وسبيت نساءهم فهل صدقوا في هذا ؟

فهز رأسه قائلاً : هذا لا يحل الا لمن تولى وكفر ، وهم قوم مسلمون .

قال : اخبرني يا امير المؤمنين واحدة من اثنين ، اما ان اقاتل معك واما ان اكف عنك عشرة آلاف سيف .

— : ولكنك عاهدت القوم على الاعتزال .

قال : ان من الوفاء لله قتالهم ..

قال : اذن فاكفف عنا السيوف التي ذكرت .

فرجع الاحنف الى الناس فدعاهم الى القعود ونادى :

يا آل خندف ..

فاجابه ناس منهم .

ثم نادى : يا آل تميم !

فاجابه ناس ، ثم نادى : يا آل سعد . فلم يبق سعدي الا اجابه . فاعتزل بهم واقام ينظر الى ما يفعله الناس . وتراءى الجيشان ، فخرج الزبير وطلحة على فرسيهما وعليهما السلاح ، فقيل لعلي : هذا طلحة وهذا الزبير .

فركب فرسه حتى داناهما فقال : لعمري قد اعددتما سلاحاً وخيلاً فهـل اعددتما عند الله عذراً ؟؟ اتقيا الله ، ألم اكن اخاكما في الدين تحرمان دمي واحرم دمكما فاي شيء أحل لكما دمي الآن ؟

فاجابه طلحة قائلاً : أوغرت الصدور على عثمان ..

فقال : أتطلب انت يا طلحة بدم عثمان ، ؟ لعن الله الذين قتلوه .. أجئت بزوجة رسول الله تقاتل بها وخبأت زوجتك في البيت ؟ أما بايعتني ؟

— : بايعتك والسيف على عنقي !

فقال للزبير : ما أخرجك ؟

قال : انت ، ولا أراك لهذا الامر اهلا ولا أولى به منا .

قال ألست له اهلا بعد عثمان ؟ لقد كنا نعدك من بني عبدالمطلب حتى كبر ابنك عبدالله ابن السوء ففرق بيننا .

ثم قال : لا تذكر يوم مررت مع رسول الله ببني غنم فنظر اليّ وضحك وضحكت فقلت له : لايدع ابن ابي طالب زهوه فقال لك : ليس بمزه وانـــك ستقاتله وانت ظالم له . ؟

فتردد في الجواب ثم قال : نعم ، ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا ، والله لااقاتلك ابداً .

فانصرف علي الى اصحابه فقال لهم : اما الزبير فقد اعطى الله عهداً ان لا يقاتلكم .

ورجع الزبير الى عائشة فقال : ما كنت في موقف منذ عقلت ، الا وانا اعرف فيه امري ، غير موقفي هذا .

قالت : فما تريد ان تصنع ؟

– : اريد ان ادعهم واذهب .

فقال له ابنه عبدالله : جمعت بين هذين الجيشين ، حتى اذا تلاقيا اردت ان تترك قومك وتذهب؟! ولكنك خشيت رايات ابن ابي طالب وعلمت انها تحملها فتية انجاد وان تحتها الموت الاحمر فجبنت وآثرت الذهاب على البقاء .

قال : حلفت ان لا اقاتله .

قال : كفر عن يمينك وقاتل .

فأعتق الزبير غلاماً له ولم يذهب . ونزلت عائشة في احد المساجد ، بالقرب من الجيشين ، والناس لايذكرون الا الصلح ووضع الحرب . وسارت رسـل طلحة والزبير الى علي ، ورسل علي اليهما يتحدثون بأمر الصلح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها ، للسلام الذي اشرفوا عليه . اما الذين اثاروا امر عثمان ، فباتوا بشر ليلة وكانوا يتشاورون حتى اجمعوا على الحرب دون ان يشعر بهم احد . وقبل ان يبزغ الفجر ، خرجوا فرضعوا السلاح في اهل البصرة ، فثار القوم ، فقال طلحة والزبير : ما هذا ؟

فقالوا لهما : طرقنا اهل الكوفة ليلا .

فقالا : قد علمنا ان علياً غير منته حتى يسفك الدماء ...

وسمع علي اصوات المحاربين ، فقال : ماذا جرى ؟

فأجابه رجل من رجال عبدالله بن سبأ قائلا : ما شعرنا الا والقوم قد فاجأونا بالسيف

فقال : قد علمت ان طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ...

وارسل الى الجيش ان يتهيأ للقتال . وكان كعب بن سور من رجال عائشة ، فاقبل حتى لقيها في المسجد ، فقال :

ادركي فقد أبى القوم الا القتال لعل الله ان يصلح بك . فركبت جملا يقال له عسكر ، وقد ألبسوا هودجها الدروع . فلما برزت بين البيوت وقفت . فاقتتل الناس قتالاً شديداً حتى كان العصر .

وبينا عائشة واقفة ، سمعت ضجة شديدة فقالت : ما هذه الاصوات ؟

قالوا : ضجة الجيش .

— . بخير او بشر ؟

— . بشرّ .. فالجيش يفرُّ الآن وقد خرج الزبير منه .

فتجلدت قائلة : وطلحة ؟

— : اصيبت رجله بسهم وكان ينادي : اليّ اليّ عباد الله ، الصبر الصبر .

— : ووقع عن فرسه ؟

— : نعم وسمعت القعقاع بن عمرو يقول له : يا ابا محمد انك لجريح وانك عما تريد لعليل فادخل البيوت ، فدخل ودمه يسيل وهو يقول : اللهم خذ لعثمان مني حتى ترضى ، وكان خفه قد امتلّا دماً فقال لغلامه :

ابلغني مكاناً أنزل فيه ، فانزله في دار خربة وهو فيها الآن .

واطافت الخيل بجمل عائشة ، فلما رأى ذلك قومها ، وكانوا قد هموا بالفرار ، رجعوا ، ودارت رحى الحرب من جديد .

فقالت عندئذ لكعب بن سور قاضي البصرة : خلِ عن الجمل وتقدم بالمصحف فادعُ الناس اليه .

وناولته مصحفاً ، فحمله واستقبل القوم وعائشة تقول : الله الله اذكروا الله والحساب . ولكنهم لم يسمعوا لها ، بل ارسلوا سهامهم الى كعب فقتلوه ، وجعلوا يرمون الجمل والهودج وهي تنادي فيأبون الا الاقدام .

فصاحت قائلة : ايها الناس العنوا قتلة عثمان واشياعهم .. واقبلت تدعو ، فضج الناس بالدعاء ، فسمع علي فقال : مـــاذا جرى ؟ قالوا : عائشة تلعن قتلة عثمان .

قال : اللهم العن قتلة عثمان .

وتلاحمت الصفوف عندئذ وكثر القتل ، وكانت الحرب سجالا بين الجيشين، يلمع النصر لحظة فوق اهل الكوفة ، ثم تتلألأ انواره فوق اهل البصرة . حتى كثرت السيوف حول علي . وكان ابنه محمد ابن الحنفية يحمل الراية ، فدفعه من الوراء قائلا : احمل يا محمد !

فتقدم الفتى خطوتين فعرضت له الاسنة ..

فاخذ علي الراية من يده وقال : يابني ، بين يدي ... ومشى الى الامام . وحملت ربيعة ومضر والازد واهل اليمن ، وارتفعت اصوات الاستغاثة وسقطت الاجسام تحت حوافر الخيل ، فرأى علي ما لم يره من قبل ، في ميادين الحرب .

وقام في ذهنه ان القوم لا يتراجعون إلا اذا صرع الجمل ، فقال : من يحمل على الجمل ؟ فوثبت طائفة من الفرسان وانطرحت الجثث حول ذلك الجمل الذي دعيت الواقعة باسمه ، هذا يأخذ بزمام الجمل فيقتل فيتناوله آخر فيقتل حتى قتل سبعون رجلا من قريش ، بينهم محمد بن طلحة .. وعلي ينادي : اعقروا الجمل فانه ان عقر تفرقوا . فضربه رجل فسقط فتفرق الناس .

واقبل القعقاع وزفر بن الحرث الكلابي فحملا الهودج ، وهو كالقنفذ لما فيه من السهام ، ولجأ اصحاب عائشة الى الهرب .

فأمر علي منادياً فنادى : ايها الناس ، لاتتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا منزلا ، وامر بان يحملوا هودج عائشة من بين القتلى .

ثم قال لاخيها محمد بن ابي بكر ، وهو من رجاله : اضرب على اختك قبة وانظر في امرها .

فأدخل محمد رأسه في الهودج ، فقالت : من انت ؟

قال : أبغض اهلك اليك ...

قالت : ابن الخثعمية ؟

ـ . نعم !

قالت : الحمد لله الذي عافاك ..

وقال لها عمار بن ياسر : كيف رأيتِ ضرب بنيك اليوم يا اماه ؟

قالت لست لك بأم .

اولياءه ويظمىء اعداءه انت وامثالك ... اما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا .

قال : اتدري ما اصنـع بك ؟

– اصنع ما شئت فانا لا ابالي .

قال : ادخلك جوف حمار ثم احرقه عليك بالنار ..

قال : ان فعلت بي ما تقول فلطالما فعلتم ذلك باولياء الله ، واني لارجو ان يجعلها عليك وعلى معاوية وعمرو بن العاص ناراً تلظى ، كلما خبت زادهـا الله سعيراً ..

فغضب الرجل ، وأمر رجاله فضربوه حتى قتلوه . ثم القاه في جوف حمار واحرقه بالنار كما قال . فلما بلغ ذلك اخته عائشة ، جزعت عليه جزعاً شديداً وجعلت تدعو على معاوية وعمرو ، ولم تأكل من ذلك الوقت شواء حتى توفيت.

وكان امير المؤمنين ، يندب الناس في الكوفة للدفاع عن مصر ، فلا يأتيه أحد . فعل ذلك غير مرة ، والناس يترددون !

فدعا اشرافهم وهو كئيب ، فقال : الحمدلله على ما مضى من امره ،وابتلاني بكم ايها القوم الذين لا تطيعون اذا امرت ، ولا تجيبون اذا دعوت .... أليس عجيباً ان معاوية يدعو الجفاة الطغام، المرة والمرتين والثلاث الى اي وجه شاء، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة وانا ادعوكم ، وانتم اولو النهى وبقية الناس فتتفرقون عني وتعصونني وتختلفون عليّ ؟!

فقام كعب بن مالك الارحبي فقال: اندب الناس يا امير المؤمنين فلهذا اليوم كنت ادّخر نفسي .

ثم قام فيهم خطيبا فقال : اتقوا الله ، واطيعوا امامكم ؛ وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوه .

فخرج مع كعب الفان ليس غير . فسار بهم خمس ليال ، فلما كانت الليلة السادسة ؛ اقبل من مصر ، الحجاج بن غزية الانصاري فخبر عليا بقتل محمد ..

ثم أقبل عبد الرحمن بن شبيب من الشام ، وكان عيناً لأمير المؤمنين فيها ، فقال له عليّ : ما وراءك يا عبد الرحمن ؟

قال : وردت البشارة من ابن العاص بقتل ابن أبي بكر .

فارسل فاعاد الجيش الذي بعث به وجعل يقول : الا ان مصر قد افتتحها الفجرة اهل الجور ، الذين مشوا في غير سبيل الله ، واني والله ما الوم نفسي على تقصير ، ولكني اتقدم على الأمر ، واعرف وجه الحزم ، واقوم فيكم بالرأي المصيب ، واناديكم نداء المستغيث فلا تسمعون لي قولاً ولا تطيعون لي امراً حتى تصير بي الامور الى مـا ترون ، فانتم القوم لا يدرك بكم الثار ولا تنفض بكم الاوتار ... دعوتكم الى غياث اخوانكم في مصر منذ بضع وخمسين ليلة ، فتثاقلتم الى الارض تثاقل من ليست له نية في جهاد العدو ولا اكتساب الأجر، ثم خرجت الي منكم طائفة مترددة كانما تساق الى الموت ... وملأ الحزن قلبه ، وآلمه ذلك التردد الذي يراه من القوم كلما ندبهم الى حرب .

* * *

- ٩٧ -

دانت مصر لمعاوية ، فعظم شأنه ، وذهب له في الاقطـار العربية صيت وذكر !

ومصر ، في نيلها وخراجها ، ورجالها ، ركن من اركان الخلافة ، ودار رحبة لكل مسلم ضاقت به الارض وجار عليه الزمان .

ولكن معاوية لا تكفيه مصر .. فهي وحدها لا تشبع جوفه الجائع ، ولا ترضي فيه طموحه الى المجد . وقد رأى ، وهو الحكيم الداهية ، ان الحظ يخدمه ويخون علياً ، وان القدر الذي لا عهد له ، عبد من عبيده . فاغتنمها فرصة يضع يده فيها، على اقليم آخر ، من تلك الاقاليم الكثيرة الخاضعة لأمير المؤمنين. ومعاوية اذا نظر في الامر ، لا يتردد فيه ..

ففي مساء يوم ، دعا رجلاً من اركان حربه يقـال له عبد الله الحضرمي فقال له :

ما رأيك في البصرة ؟

قال : أتحدثني بأمر الفتح ؟

- اجل !

- ان الرأي في ذلك رأيك انت .

قال : معظم اهل البصرة يرون رأينا في عثمان ، وقد قتلوا وهم يطلبون بدمه ، فهم لذلك خصوم علي .

ولكنهم متفرقون كما ترى .

- نعم ، وهم يحتاجون الى رجل يجمع كلمتهم وينهض بهم في الطلب بدم الامام القتيل الذي حاربوا علياً من اجله .

إذن لم يبق الا ان تختار هذا الرجل .

- لقد اخترته فأنت هو .

قال : وكيف اصنع اذا دخلت البصرة ؟

قال : تنزل في الأزد فكلهم معك ، وتدع ربيعة فلن ينحرف عنك احد سواهم لانهم جميعهم انصار علي فاحذر ..

- وبنو تميم ؟

- لا اجد خيراً في بني تميم الذين يرأسهم الاحنف .

قال : سألمس هوى القوم ثم افعل ما اراه .

قال : إذا اصبت فتهيأ للرحيل واعدّ رجالك .

فانصرف عبد الله ، واقبل منذ تلك الليلة يعد عدته حتى تم له الامر بعد ثلاثة ايام ، ثم خرج يريد البصرة وهو واثق بالنصر . وكان عبدالله بن عباس قد خرج الى امير المؤمنين بالكوفة ، واستخلف على البصرة ، زياد بن ابيه . فلما قدم عبدالله لقيه قوم من بني تميم يدعونه الى النزول في حيّهم وهم لا يعلمون غايته . ثم اتاه انصار عثمان مسلمين . فجعل يهامسهم قائلاً : ان عثمان إمامكم امام الهدى قتله علي ظلماً فطلبتم بدمه فجزاكم الله خيراً . ثم رفع صوته ليسمعه القوم الذين حوله .

فقام الضحاك بن قيس الهلالي ، وكان على شرطة ابن عباس فقال : قبّح الله ما جئتنا به وما تدعونا اليه ، اتيتنا والله بمثل ما اتانا به طلحة والزبير ، وكنا قد بايعنا علياً ، واستقامت امورنا فحملانا على الفرقة حتى قتل بعضنا

البعض الآخر ونحن الان مجتمعون على بيعته، وقد اقال العثرة، وعفا من المسيء، أفتأمرنا ان نجرد السيوف ليكون معاوية اميراً ؟؟! والله ليوم من ايام علي خير من معاوية وآل معاوية !.

فقال له عبدالله بن خازم السلمي : اسكت فلست بأهل ان تتكلم، ثم قال لابن الحضرمي : نحن انصارك ويدك، والقول قولك فأقرأ كتابك ..

فاخرج كتاب معاوية اليهم، يذكرهم فيه آثار عثمان فيهم، ويذكر قتله ويدعوهم الى الطلب بدمه، ويعدهم بأنه يعطيهم في السنة عطاءين .

فلما فرغ من قراءته، قال الاحنف وكان حاضراً: لاناقتي في هذا ولا جملي.. وكان قد مل الحرب بعد موت اخيه وابن اخيه .

واعتزل القوم . وقام عمرو بن مرحوم العبدي فقال : ايها الناس، الزموا طاعتكم وجماعتكم ولا تنكثوا البيعة فتقع بكم الواقعة . وكان عباس بن صحار العبدي، مخالفاً لقومه، وهو يحب معاوية ويؤثره على علي فقال لعبدالله : لننصرنك بايدينا والسنتنا ... فقال نسيب له : والله يا عبدالله، لئن لم ترجع الى مكانك الذي جئتنا منه لنجاهدنك باسيافنا ورماحنا ولا يغرنك هذا الرجل الذي يتكلم الآن، وهو يعني ابن صحار .

فقال ابن الحضرمي لصبرة بن شيمان، وهو من الأزد : انت ناب من أنياب العرب فانصرني .

قال : لو نزلت في داري لنصرتك. فخاف زياد بن أبيه ان تشتعل نار الفتنة. فاستدعى حصين بن المنذر، ومالك بن مسمع فقال لهما : انتم يا معشر بكر ابن وائل انصار امير المؤمنين وثقاته، وقد كان من ابن الحضرمي ما ترون، واتاه من أتاه من القوم فامنعوني حتى يأتيني امر امير المؤمنين.

فقال ابن المنذر : سأفعل .

وقال مالك، وكان يميل الى بني امية : هذا امر لي فيه شركاء اشاورهم وانظر فيه .

فارسل الى صبرة بن شيمان يطلب اليه ان يجيره ويحفظ بيت مال المسلمين، فقال صبرة : اذا حمل ما في بيت المال الى داري، فعلت .

فنقل زياد بيت المال الى دار صبرة ، ثم قال لجابر بن وهب : اني لا ارى ابن الحضرمي يكف عن الشر ، وانا اظن انه سيقاتلكم ولا ادري ماعند اصحابه، فانظر في الامر واقرأ اسرار القوم .

فلما صلى زياد ، جلس في المسجد واجتمع اليه الناس فقال جابر : يا معشر الأزد ، ان تميماً تزعم انهم هم الناس ، وانهم اصبر منكم عند الشدة ، وقد بلغني انهم يريدون ان يسيروا اليكم ويأخذوا جاركم زياداً. ويخرجوه قسراً فكيف انتم اذا فعلوا ذلك وقد اجرتموه ؟

فقال صبرة : ان جاء الاحنف نفسه جئت ، وان جاء رؤساء بني تميم جئت وان جاء شبابهم ففينا شباب ..

فطابت نفس زياد وكتب الى امير المؤمنين يقص عليه كل شيء ، فأرسل علي الى البصرة ، اعين بن ضبيعة المجاشعي التميمي ،ليفرّق بني تميم عن ابن الحضرمي، فان اقتنعوا قاتل بمن اطاعه من عصاه . فقدم اعين ، حتى اتى زياداً ، فنزل عنده ، ثم اتى قومه فطلب اليهم ان يساعدوه في أمره . فشتموه ، فانصرف عنهم .

فلما كان الليل ، دخل عليه قوم من الخوارج ، وقيل من رجال ابن الحضرمي فقتلوه غيلة .

فأراد زياد عندئذ ان يشهر السيف ،فأرسلت تميم الى الازد يقولون: لم نعرض لجاركم فلا تعرضوا انتم لجارنا . فكرهت الأزد ان تقاتلهم وكانوا يقولون : اذا عرضوا لجارنا منعناه . وكتب زياد ثانية الى علي يخبره بقتل الرجل .

فبعث علي بجارية بن قدامة السعدي ، وهو من بني تميم ، ومعه خمسمائة من رجال الحرب . فقدم جارية البصرة ، فحذره زياد من القوم ، فقال : لا ابالي بهم .

وجزى بني الازد خيراً قائلاً لهم : عرفتم الحق اذ جهله غيركم .

وقرأ كتاب علي الى اهل البصرة يوبخهم ويتهددهم ، بالمسير اليهم والايقاع بهم وقعة لا تذكر معها وقعة الجمل .

فقال صبرة بن شيمان : سمعا لامير المؤمنين وطاعة ، نحن حرب لمن حاربه، وسلم لمن سالمه .

ثم سار جارية الى قومه وقرأ عليهم الكتاب ، فأجابه اكثرهم . فأقبل الى ابن الحضرمي ومعه الازد ، ومن تبعه من قومه وعلى خيل عبدالله ، عبدالله بن خازم السلمي .

فاقتتلوا ساعة تم النصر بعدها لجيش امير المؤمنين . ففرّ عبدالله وابن خازم الى قصر في ضواحي البصرة يتحصنان به ، فاقبلت والدة ابن خازم ، وكانت حبشية ، فأمرته بالنزول فابى ، فقالت : والله لتنزلنّ او لأنزعن ثيابي .

فنزل ونجا ، وقدم جارية فأحرق القصر بمن فيه ، فهلك ابن الحضرمي ومعه سبعون رجلاً من رجال الشام فيهم بعض بني تميم .

فقال احد شعراء الازد :

رددنا زياداً الى داره	وجار تميم دخاناً وذهب
لحى الله قوماً شووا جارهم	ولم يدفعوا عنه حر اللهب !

وقال آخر :

غدرتم بالزبير فما وفيتم	وفاء الازد اذ منعوا زيادا
فأصبح جارهم بنجاة عز	وجار مجاشع أمسى رمادا

وكان ذلك ، في السنة نفسها التي قتل فيهـــا محمد بن ابي بكر ، اي السنة الثامنة والثلاثين .

* * *

- ٩٨ -

الفتنة وراء الفتنة ، والقتال يتبع القتال ، وأمير المؤمنين ، يضع الشدة في موضعها واللين في موضعه ... ومعاوية ، واهل الشام ، ينفخون في الصدور ، روح الثورة والعصيان .

في كل بلد لهجة عتاب ولوم ، وفي كل اقليم اصـــوات تدعوا الى الشورى ،

والفوضى تنشر ظلها في كل قطر .

وقد اقبل رجل من بني ناجيـــة يدعى الخريت بن راشد فقــال لعلي : يا علي ، والله لا اطيع امرك ، ولا اصلي خلفك ، واني غداً مفارق لك !!

فقال : ثكلتك امك.. تعصى ربك، وتنكث عهدك،فلا تضر الا نفسك.. خبرني لِمَ تفعل ذلك ؟

– لانك حكمت الرجال وضعفت عن الحق ووثقت بالقوم الذين ظلموا ... فأنا خصم لك ولهم .

قال : اني اعلم بالامور منك فهلمَّ افسر لك كتاب الله فلعلك تعرف ما انت منكر له الان ، فأبى وخرج من عنده . فلما جنَّ الليل ، جمع اصحابه ، وهم ثلاثمائة ، وقد شهدوا مع امير المؤمنين ، الجمل وصفين، وخرج بهم مفارقين علياً. فلما بلغ امير المؤمنين خروجهم قال لزياد بن خصفة البكري : لقد استهواهم الشيطان وأضلهم فنكثوا عهدهم بدون عذر .

قال : انهم لا يزيدون في عددنا اذا اقاموا ، ولا ينقصون منه اذا خرجوا ، ولكننا نخاف ان يفسدوا علينا الناس من اهل طاعتك فاذن لي في اللحاق بهم حتى اردهم عليك .

– أتدري اين توجهوا ؟

– لا ، ولكني اسأل واتبع الأثر .

قال : اخرج رحمك الله وانزل دير أبي موسى حتى يأتيك امري .

فانصرف زياد على رأس مئة وثلاثين رجلاً من بكر بن وائل حتى اتوا دير ابي موسى فأقاموا به ينتظرون امر علي .

واتى علياً كتاب ، من قرظة بن كعب الأنصاري يذكر له فيه المكان الذي انصرفوا اليه، ويخبرهم انهم قتلوا رجلاً فارسياً اعتنق الاسلام . فكتب الى زياد يأمره بان يلحق بهم ويردهم اليه ، واذا ابوا فالسيف .

وحمل عبدالله بن وال كتابه الى زياد ، فلما انتهى اليه ، زحف برجاله حتى ادرك القوم ، وهم نزول في موضع يقال له المذار .

وكان اصحابه قد تعبوا ، فلما رآهم الخريت ، امر رجاله بان يركبوا خيلهم وقال لزياد : ما تريد يا ابن خصفة ؟

وزياد من الرجال المجربين اهل الدهاء ، فقال : قد ترى ما بنا من التعب ، والذي اتيناك من اجله لا يصلحه الكلام القليل ، ولكن ننزل ، ثم نخلو جميعاً فننظر في امرنا ، فأن رأيت فيما نقوله لك حظاً لنفسك قبلته ، وان رأينا فيما نسمع منك امراً ترجو فيه العافية لم نردّه عليك .

قال : انزل .

فنزل مع اصحابه على ماء هناك ، واكلوا شيئاً وعلقوا دوابهم ، وهـذا ما كان يريده زياد . ثم وقف في خمسة رجال ، بين اصحابه وبين القوم وجعل يقول لمن حوله : ان عدتنا كعدتهم وأرى ان امرنا يصير الى القتـال فلا تكونوا اعجز الفريقين . ثم سمع اصحاب الخريت يقولون : جاء القوم وقد نهك التعب اجسامهم فتركناهم حتى استراحوا ... هـذا والله سوء الرأي ... فقال زياد للخريت : اي شيء دعاك الى الخروج عن طاعة امير المؤمنين ؟

قال : لا ارى صاحبكم إماما ، ولا سيرتكم سيرة ، وقد رأيت ان اعتزل واكون مع من يدعو الى الشورى .

– وهل يجتمع الناس على رجل يداني صاحبنا الذي فارقته ، علما بالله وسنّته وكتابه ؛ مع قرابته من النبي ؟

– لا !

– وفيما قتلت ذلك الرجل الفارسي الذي امسى من المسلمين ؟

– لست قاتله وانما قتلته طائفة من أصحابي .

قال : ادفعهم الينا .

– ما لي الى ذلك سبيل .

فقال زياد : لم يبق إلا السيف فتهيأ .

فدعا الخريت اصحابه ؛ فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى لم يبق رمح ؛ وتضاربوا بالسيوف حتى انحنت وعقرت الخيل .

وجاء الليل ؛ ففر الخريت مع طائفة من رجـــاله حتى أتى الاهواز ، وقد انضم اليه فريق آخر من اعداء التحكيم.

وكان زياد قد جرح ، فكتب الى علي يخبره بفرار عدوه ، وانه مقيم في ناحية من نواحي البصرة يعالج الجرحى .

فلما قرأ علي كتابه ، قام معقل بن قيس فقال : يا امير المؤمنين ، كان ينبغي ان يكون ، مع من يطلب هؤلاء ؛ عشرة رجال ، مكان كل رجل منهم .
– لماذا ؟
– ليستأصلوهم اذا لحقوا بهم .
قال : لقد جاء دورك الان فاستعد .

وندب معه الفي رجل من اهل الكوفة ؛ وعوّل على ان يضرب اهل الفتنة ضربة لا يكون لهم بعدها شأن . وكتب الى ابن عباس في البصرة ، يأمره بان يبعث رجلاً شجاعاً معروفاً بالصلاح في ألفي رجل الى معقل . ثم كتب الى زياد ابن خصفة يشكره ويدعوه الى الرجوع . فارسل ابن عبـاس الى معقل ، خالد ابن معدان الطائي في جيش مـن اهل البصرة ، ومشوا جميعاً يريدون الأهواز .

وكان الخريت في جبل من جبال ذلك القطر ؛ وقد اجتمع اليه من العرب من يرى رأيه ، ولصوص من اهل الأهواز ارادوا ان يحتفظوا بمال الخراج .

فلما التقى الجيشان صفّ معقل اصحابه فجعل على ميمنتـه يزيد بن المعقل الأسدي وعلى ميسرته منجاب بن راشد الضبي، وكان على ميمنة الخريت اصحابه من العرب ، وعلى الجناح الآخر اهل البلد والاكراد .

وحرّك معقل رأسه مرتين ، ثم حمل في الثالثة . فصبروا له ساعة ثم انهزموا وقد قتل معقل منهم ، سبعين رجلاً جميعهم من بني ناجية انسباء الخريت وقتل اصحابه طائفة كبيرة من اهل فارس ورجال الاكراد . ولحق الخريت « باسياف البحر » وفيها جماعة كثيرة من قومه . فمـا زال يسير فيهم ، ويدعوهم الى العصيان والى قتال علي ، حتى تبعه منهم اكثر من الفين .

وكان معقل قد كتب الى امير المؤمنين بالفتح . فأستشار علي اصحابه فقالوا: نرى ان تأمر معقلاً بان يتبع آثار الفـاسق فيقتله ، فانا لا نأمن ان يفسد عليك الناس .

فكتب علي الى معقل يثني عليه وعلى من معه ؛ ويأمره بأن يلحق به حتى يقتله او ينفيه . فمشى معقل عندئذ الى اسياف البحر ، وقد بلغه ان الرجل رد القوم عن طاعة امير المؤمنين ،وافسد من عنده من بني عبد القيس ؛ ومن حولهم من العرب . وكان قوم الخريت ، قد منعوا الصدقة في ذلك العام والعام الذي قبله لا يبالون بأمر امير المؤمنين . وهم مزيج من الخوارج وانصار عثمان .

فقال للخوارج : انا على رأيكم وان علياً اخطأ في التحكيم .

وقال لاتباع عثمان : ان علياً قتل عثمان ظلماً ..

وقال لمن منع الصدقة : شدوا ايديكم على الصدقات .

وهكذا ارضى بالقول جميع الذين انضموا اليه . واقبل معقل ، فنصب راية الامان قائلاً : من اتى هذه الراية من الناس فهو آمن الا الخريت واصحابه الذين حاربونا في المرة الأولى . فتفرق عن الخريت معظم من كان معـه من غير قومه .

ثم حمل معقل وهو يقول : ايها الناس ان الله ساقكم الى قوم منعوا الصدقة وارتدوا عن الاسلام ونكثوا البيعة ظلماً فقاتلوهم حتى لا تبقوا منهم احداً . واقتحمت الخيل الخيل ،ودارت رحى الحرب. ثم ان النعمان بن صهبان الراسبي ابصر الخريت يجول في الساحة ويحرض قومه . فطعنه طعنة ازاله بها عن فرسه. ثم شهر السيفان فكان سيف النعمان اسبق الى عنق الخريت فخر على الارض مضرجا بدمه وجعل النعمان ينادي : هـذا الخريت الفاسق قد قتل . فدب الذعر في القلوب ولوت الخيل اعناقها فراراً من السيف ، وقتل بعد الخريت مئة وسبعون رجلاً من الخوارج واتباع رأيه . وقضت الحال بان يلجأ فريق من هؤلاء القوم الى معاوية في الشام ويبايعوه على الموت . وعلي يرى انه خير للخلافة ان ينصرف عنه هؤلاء المترددون ، ليعرف اعداءه ويحذر الخارجين عن طاعته ...

* * *

معاوية واهل الشام من هذه الناحية والخوارج واتباعهم من الناحية الاخرى يخلقون الحادثات في الاقاليم الآمنة ، ويعكرون على امير المؤمنين صفو العيش . وامير المؤمنين رضي الله عنه جبار صلب العود يستهين بالاخطار ويخمد النار مسترشداً برأي اصحابه مستعيناً بالله . اجل كان على علي وهو خليفة المسلمين وسيدهم الاكبر ان يثبت في وجه العداوتين القاهرتين عداوة الخوارج وعداوة الشام ويقابل الدهاء بالدهاء والسيف بالسيف . على انه كان يؤثر القضاء على الخوارج قبل ان تجمعه الميادين بجيوش معاوية في الشام او العراق .

ان الخوارج خطر على الخلافة ، لا يستهان به . يحتجبون زمناً وراء الجدران ، حتى اذا اشتد ساعدهم خرجوا والسيوف في الايدي ليقرضوا اركان الملك . وكيف يصبر الخليفة على هؤلاء الرجال ، الذين كانوا اتباعاً له فامسوا بين ليلة وضحاها ، شر الاعداء ..

يحارب الخوارج ويقضي على تلك الدعوة الغريبة التي حملوا لواءها ، ودعوا اليها المسلمين ، ثم ينظر وهو عزيز في الكوفة وله العراق والحجاز وفارس واليمن في أمر القضاء على العدو الاخر ، الذي يحاول ان يسلبه الخلافة ، ويستولي على الملك قطعة بعد قطعة . وقد خيل اليه ، ان البقية الباقية ، من طائفة الخوارج ، لن تحمل سيفا بعد واقعة النهروان ، وقد تسكت على غل الى الابد . ولكنها لم تسكت ، فقد خرج أشرس بن عوف الشيباني وهو منها ، حاملاً في الانبار ، علم الحرب .

فوجه اليه امير المؤمنين ، قائداً من قواده ، يدعى الابرش بن حسان في قطعة من الجيش . واقتتل الفريقان في الانبار ، فقتل أشرس . ثم خرج هلال بن علفة « من تيم الرباب » ومعه اخوه مجالد ، فأمر علي معقل بن قيس بان يبرز اليه . ولم يلبث هلال حتى قتل .

وبينا القوم يظنون ان الامر قد انتهى خرج رجل ثالث يقال له الاشهب بن بشر من بني بجيلة ، ومعه رجاله . ولم يشأ الا ان يجول في الساحة التي قتل فيها هلال واصحابه . فأتاه جارية بن قدامة السعدي ، فقتله وقتل اصحابه ، ورجع

جيش امير المؤمنين ، وهو ينشد اناشيد النصر . ولكن الامر لم ينته ، فقد بلغ علياً ، ان خارجياً رابعاً يدعى سعيد بن قفل من تيم الله ، يصول ويجول عند المدائن ، ووراءه طوائف من العرب . فبعث علي الى سعد بن مسعود يأمره ان يضع فيهم السيف ، فقتلهم سعد في السنة الثامنة والثلاثين ، في شهر رجب ، وبعث برسله الى الكوفة يحملون البشرى الى علي .

ولكن حدث بعد شهر ، ما لم يكن يخطر لأحد ، فقد برز الى الميدان ، خارجي آخر هو ابو مريم السعدي ، ورفع صوته بالدعوة الى القتال .. وليس غريباً ، ان ينتصر الرجل لأصحابه ، ويحمل السيف كما حملوه ، بل الغرابة ، في تلك الجرأة ، التي هي مظهر من مظاهر الجنون .. رفع صوته ، في ناحية من نواحي فارس ثم مشى وهو لا يبالي، حتى قارب الكوفة عاصمة الخلافة ،مستخفاً بأمير المؤمنين وابطال المسلمين !!

فأرسل اليه علي ، يدعوه الى البيعة ودخول الكوفة، فقال للرسول : ليس بيننا وبين علي غير الحرب !! وهي جرأة لم يرَ مثلها من خارجي ..

فقال امير المؤمنين لشريح بن هانىء : اتكفيني هذا المجنون ؟

— اجل ، وسأحمل اليك رأسه .

قال : اخرج اليه غداً في سبعمائة من الرجال .

فزحف شريح ، في اليوم الثاني ، ولم يلبث حتى لقي الخوارج ، بعد خمسة فراسخ من الكوفة ، وهم اربعمائة . وقبل ان يخاطبهم بالحسنى ، ويدعوهم ثانية الى الدخول في الطاعة حملوا عليه ، وفاجأوه بالسيوف والرماح !!! فثبت لهم في وضح النهار ولكن اصحابه تراجعوا عنه قبل ان يجن الليل ولم يبق منهم حوله غير مائتين !

وأكرهه ابو مريم ، على الالتجاء الى قرية صغيرة مع بعض اصحابه واكره البعض الاخر على الفرار ، راجعين الى الكوفة .

فرأى امير المؤمنين الشجاع ان يخرج بنفسه، وكان يقول: لقد طمع الخوارج حتى ارادوا ان يغتصبوا دار الخلافة .

وأمر جارية بن قدامة ان يمشي في الطليعة .فسار جارية ودعاهم الى الطاعة، وحذرهم القتل .

ثم قدم علي فدعاهم مثله ، فلم يجيبوا ، وأبوا إلا القتال ، فأحاط بهم عندئذ جيش علي ووضع فيهم السيف حتى قتل ابو مريم وقتل رجاله لم يسلم منهم غير خمسين . وكان ذلك في شهر رمضان .

وصفا العراق بعد ذلك لعلي ، من هـــذه الناحية . ولم يبق الا ان يستعين بالقوة والدهاء ليصفو له الجو من الناحية الاخرى ، ناحية الشام . وقد عظم شأن معاوية وبعدت هيبته .

* * *

- ١٠٠ -

دخلت السنة التاسعة والثلاثون .وقد رأى معاوية ان الحظ بسم له في مصر ، فمن الرأي ان يمديده الى الاقطار الاخرى فقد يبسم له هذا الحظ في كل قطر . نعم ، ان معاوية الطامع بالعرش لا تكفيه مصر والشام ، وليس من العدالة والحكمة ان تضيق به الارض فيكون له اقليمان... وتتسع لعلي فيكون له بضعة اقاليم !!! العراق وفارس ، والحجاز واليمن ملك واسع فسيح الجوانب ، يعز على معاوية ان يكون كله خاضعاً لعلي .

وكيف يستقيم له امر الخلافة اذا هو لم يسلب علياً حقه ، ويجعل السيف رسوله، الى هذه البلاد الآمنة التي تخفق فيها اعلام أمير المؤمنين. وما هو الحق في نظر معاوية ؟ ان الحق للسيف..وللقوي ان يصعد الى العلياء على جثث الابرياء. اذن فليزرع معاوية الموت في كل بلد ، ليحصد المجد .. وليجري الدم البريء في كل قطر ليتم له امر الملك .

بدأ بالعراق ، فأرسل النعمان بن بشير ، في الف رجل الى عين التمر ، وفيها مالك بن كعب في الف رجل من رجال علي .

وكان مالك قد أذن لاصحابه فأتوا الكوفة ، ولم يبق معه غير مئة رجل . فلما عرف ان نعمان زاحف اليه ، كتب الى امير المؤمنين يستمده ، ويسأله ان يتعجل في ارسال الجيش . فأمر علي الناس بالخروج ، فتثاقلوا ...

وأقبل النعمان الى عين التمر ، وليس عند مالك غير من ذكرنا من الرجال ، فلم يستطع الا ان يستعين ، بمخنف بن سليم ، وهو قريب منه ، ويجعل سور البلد وراء اصحابه ، ريثما يصل اليـــه جيش امير المؤمنين . وسعَّر النعمان الحرب ، فقاتل مالك وهـو مستند الى السور ، ثم اقبل عبد الرحمن بن مخنف في خمسين رجلاً ، وقد كسروا اغماد سيوفهم واستقتلوا . فلما رآهم اهل الشام ، انهزموا عند المساء ، وهم يظنون انهم نجدة بعث بها علي من الكوفة . فتبعهم مالك حتى خرجوا من ارضه ، وامعنوا في السهل .

وأمير المؤمنين في الكوفة ، يخطب الناس ويقول :

يا اهل الكوفة ، كلما سمعتم بجمع من اهل الشام لجأ كل رجل منكم الى بيته واغلق عليه بابه ... لا احرار عند النداء ، ولا اخوان عند النجاء ... عمي لا يبصرون ، وبكم لا ينطقون .. وصم لا يسمعون .. انا لله وانا اليه راجعون .. حتى انتهى اليه ان رجال عين التمر ظفروا بعدوهم .. ولكن بلغه من الناحيــة الاخرى ، ان سفيان بن عوف ، من قواد الشام ، زحف الى الانبار في ستة الاف رجل .

وعامل علي على الانبار ، كميل بن زياد ، وقد بلغه ، قبل مجيء سفيان بن عوف ، ان قوماً من العرب زاحفون اليه فسار اليهم ، ليوقع بهم ، بغير امر امير المؤمنين .

فلما قدم جيش الشام ، كان كميل غائباً ، وليس في الانبـــار غير مئتين من الرجال فطمع سفيان باصحـــاب علي لقلتهم ، وأحاط بهم بجيشه الكثير من النواحي الاربع ، ففرقهم ، وقتل سيدهم وهو اشرس بن حســـان البكري ، وثلاثين من رجـاله . واحتمل مـا في الانبار من امـوال اهلها ، ورجـع الى معـاوية .

فغضب امير المؤمنين على كميل بن زياد ، وكتب اليه ينكر عليه خروجه من

الانبار ، بدون اذنه . ثم امر رجاله بان يتبعوا اهل الشام ويسترجعوا ما اخذوه ففعلوا ولكنهم لم يدركوهم .

وبعد ايام أقبل عبدالله بن مسعده الى تيماء ، بأمر معاوية، يضم اليه من يمر به من اهل البادية ، ويقتل من عصاه . واجتمع اليه بشر كثير . فارسل علي ، المسيب بن نجبة في ألفي رجل ؛ فلحق بعبدالله بتيماء وتلاحمت سيوف الجيشين، عند غروب الشمس . وكان المسيب بطلاً شجاعاً تعرفه العرب ، فحمل على ابن مسعدة فضربه ثلاث ضربات لا يريد قتله وهو يقول له : النجاة ....

فدخل ابن مسعدة وطائفة من جيشه ، حصناً هناك ، وهرب الذين نجوا من السيف الى الشام . ومرّ على اهل الحصن ثلاثة ايام ، ألقى المسيب بعدها الحطب في الباب وأضرم النار يريد ان يحرق من فيه . والمسيب من بني فزارة ، وابن مسعدة من هؤلاء ... فلما رأى القوم انهم اشرفوا على الهلاك ، اطلوا حتى اشرفوا على الجيش وجعلوا يقولون : يا مسيب قومك .. فرق لهم . وامر بالنار فاطفئت ثم قال لاصحابه : خبرني جواسيس الجيش ان جنداً من الشام سيفاجئنا غداً ...

فقال له عبد الرحمن بن شبيب : انا اكفيك امر هذا الجند اذا اردت . فأبى ذلك عليه ، فقال له عندئذ : غششت امير المؤمنين وداهنت في الأمر . فتراجع المسيب ولم يبال بقوله .

وعندما بلغ علياً ذلك ، انتهى اليه ان معاوية وجه الضحاك بن قيس الى نواحي الحيرة ، وامره بأن يغير على الاعراب الذين هم في طاعة علي ، وجعل وراءه ثلاثة آلاف من رجاله . ففعل الضحاك ما امره به ، ووضع سيفه في اعناق الناس ويده على اموالهم حتى اغار على موضع يقال له القطقطانة . فارسل اليه علي ، حجر بن عدي ، في اربعة آلاف ، اعطى كل واحد منهم خمسين درهماً ، وامرهم بأن يضربوا الضحاك ضربة لا يجسر غيره بعدها ، على الزخف الى العراق .

ومشى حجر حتى وقعت العين على العين، واقتتل الجيشان . فرأى الضحاك ان الفرار خير له من القتال . وتراجع الى تدمر ، فلحق به حجر فقتل من

اصحابه بضعة عشر رجلاً ثم حجز الليل بين الجيشين . وعندما طلع الصباح كان الضحاك ومن معه في طريقهم الى الشام راجعين الى سيدهم فراراً من السيف.
فرأى معاوية ان يسير بنفسه الى حدود العراق فيتبين قوى امير المؤمنين ويغزو اذا طاب له الغزو . ولم يلبث حتى غادر الشام ، ولكنه عندما انتهى الى دجلة ملأت هيبة امير المؤمنين نفسه فرجع دون ان يشهر سيفاً .

ثم دعا اليه وهو في دمشق ، يزيد بن شجرة فقال له : اريد ان ابعث بك الى مكة لتقيم الحج للناس ، وتأخذ لي البيعة ، وتنفي عن مكة عامل علي !
قال : والرجال ؟
- ثلاثة آلاف .
قال : اني فاعل فجهز الجيش .
فاختار معاوية رجاله ، وامر الجيش بالمسير ، وكان عامل علي ، على مكة قثم بن عباس . فلما بلغه خبر يزيد ، أعلم اهل مكة بالامر ودعاهم الى حرب اهل الشام فلم يجيبوه !..
فقال شيبة بن عثمان : سمعنا واطعنا .
فعول ابن عباس على ترك مكة والالتجاء الى بعض الشعاب . وكتب الى امير المؤمنين يسأله ان يمده بالجيش ، فاذا فعل قاتل الشاميين والا كان له عذر..
فنهاه رجل ، يدعى ابا سعيد الخدري ، عن ترك مكة وقال له : اقم فان رأيت منهم القتال وعندك قوة، فاعمل برأيك والا فانت قادر على الفرار عندما تشاء.
فأقام وقد تهيأ لما اشاروا عليه به . وقدم اهل الشام فلم يعرضوا لقتال احد وكان يزيد بن شجرة ينادي في الناس : انتم آمنون الا من قاتلنا ..

ثم استدعى ابا سعيد الخدري وقال له: اريد الالحاد في الحرم ولو شئت لفعلت لما في اميركم من الضعف ، فقل له يعتزل الصلاة بالناس واعتزلها انا ويختار الناس رجلاً يصلي بهم .
فنقل ابو سعيد ما قاله يزيد الى ابن عباس . فاعتزل الصلاة واختار الناس شيبة بن عثمان فصلى وحج بهم . فلما قضى الناس حجهم غادر يزيد مكة راجعاً الى الشام وقد رأى ان لا يعرض لامر البيعة .

واقبلت بعد خروجه خيل علي وعليها معقل بن قيس . فقص عليهم القوم ما فعله يزيد . فادر كوهم وقد رحلوا عن وادي القرى فظفروا بطائفة منهم فأخذوهم اسرى واخذوا ما معهم ورجعوا بهم الى امير المؤمنين . فكتب معاوية الى امير المؤمنين يسأله ان يطلق اسراه ويطلق هو له سبعة رجال من تغلب اسرهم الحرث التنوخي .ففعل وانصرف كل اسير الى بلاد قومه .

وقام في اذهان الناس عندئذ ان معاوية سيكف عن القتال ولكنه لم يهدأ بل كان يسير رجاله الى جميع النواحي ليسعروا النار . بعث بعبد الرحمن ابن قباث إلى بلاد الجزيرة وعليها شبيب بن عامر من أنصار علي . وكان شبيب يومئذ في خراسان . فكتب إلى كميل بن زياد يطلب اليه أن يقاتل عبد الرحمن ويقف في وجهه ريثما يعود .

فمشى ابن زياد برجاله حتى لقي جيش الشام ، فقاتله قتالا شديداً بسمله بعده النصر . ونقل رجاله البشرى إلى أمير المؤمنين فرضي علي عنه وأجابه جواباً حسناً ، وكان ساخطاً عليه ، كما قرأت .

ثم أقبل شبيب من نصيبين ، فرأى أن الأمر قد انتهى فهنأ ابن زياد بالنصر ، ودفع خيله يريد أن يلحق بأهل الشام ، فلم يستطع ، فعبر الفرات ، وأغار على أنصار معاوية حتى بلغ بعلبك . فوجه اليه معاوية حبيب بن مسلمة فلم يدركه .

وقد أغار شبيب ، وهو راجع ، على الرقة وما حولها ، فلم يدع لأهل الشام ماشية إلا استاقها ، وأخذ الخيل والسلاح وعاد إلى نصيبين . فكتب إلى علي ، ينهاه عن أخذ أموال الناس ، إلا الخيل والسلاح الذي يقاتلون به ، وجعل يقول لمن حوله : رحم الله شبيباً فقد أبعد الغارة ، وعجل الأنصار .

وكان زهير بن مكحول العامري ، يأخذ صدقات الناس بأمر معاوية في ناحية أخرى من الجزيرة . فأرسل علي اليه ثلاثة من القواد : جعفر بن عبد الله الأشجعي وعروة بن العشبة ، والجلاس بن عمير الكلبي ، ليكونوا اعواناً لأهل طاعته . فوافى الثلاثة زهيراً فاقتتلوا . ولكنهم فشلوا ، وقتل جعفر بن عبد الله ، وفر الجلاس وابن العشبة راجعين إلى الكوفة ، وابن العشبة ، على فرس من أفراس زهير بن مكحول .

فقال له علي : ليست هذه الفرس لك ....

قال : انها من أفراس زهير .

فقال : يحملك عدونا على فرس له وتمثل بين يدي أمير المؤمنين زاعماً انك عجزت عن الدفاع ؟..

وأقبل يعنفه ويلومه ، ثم ضربه بالدرة التي في يده وكان يقول : لقد بلغنا انك عاهدت عدونا على الفرار ..

فغضب عروة ولم يلبث حتى غادر الكوفة لاحقاً بمعاوية عارضاً عليه سيفه ، ومن معه من قومه . وكان أهل دومة الجندل ، قد امتنعوا ، من بيعة علي ومعاوية واعتزلوا الجيشين المتحاربين لا يجردون سيفاً . فجاء مسلم بن عقبة المري ، يدعوهم إلى طاعة معاوية فلم يجيبوه . ثم لم يشعر مسلم ، الا وقد وافاه ، مالك بن كعب الهمداني في جيش من الكوفة ففر من وجهه ، وهو واثق بأن الفرار ينقذه وأصحابه من الموت .

وأقام مالك بدومة الجندل ، أياماً ، يدعو أهلها الى بيعة علي وهم يقولون له: لا نبايع حتى يجتمع الناس على خليفة .. فانصرف راجعاً وهو لا يرى ان يخضعهم بالسيف .

وقبل ان تدخل السنة الاربعون ، انتهى الى علي ، ان اهل فارس وكرمان ، كسروا الخراج ، واخرج اهل كل ناحية عاملهم ، وطرد اهل فارس ، العامل الاكبر ، سهل بن حنيف . فاستشار الناس ، فقال له جارية بن قدامة : الا ادلك يا امير المؤمنين ، على رجل صلب الراي ، عالم بالسياسة ، يكفيك امرهم ، ويكون عند حسن ظنك به ؟

قال : من هو ؟

قال : زياد بن امية .

وكان زياد في البصرة .

فأمر علي ، عبد الله بن عباس ، امير البصرة ، ان يولي زياداً . فسيره ابن عباس الى فارس ، في جيش كثير .

فوطىء بذلك الجيش ، ذلك القطر الواسع ، وكان قد اضطرب ، وجعل

يعد من يقاتل تحت لوائه ويمينه ، ويخوف من امتنع ، ثم امعن في الدهاءفضرب بعضهم بالبعض الآخر واقبلت هذه الفئة تدل على عورة الفئة الاخرى حتى صفت له فارس واستقام له الامر . فطابت نفس امير المؤمنين ، وعول على اتخاذ جميع الوسائل التي يقضي معها على معاوية الذي ينازعة السلطان .

* * *

- ١٠١ -

اقبلت السنة الاربعون ، والسيوف لم تغمد ، ودماء الابرياء لم تجف عن وجه الارض ، والناس في خوف مستمر من الحرب . وكان مجلس معاوية يضم قواده وانصاره ، وهم ينظرون في امر انتزاع الخلافة من امير المؤمنين . ومعاويةمطرق لا يقول كلمة . ثم رفع راسه قائلا : اين بسر بن ابي ارطأة ؟

فقال بسر : اني هنا يا مولاي .

قال : لقد راينا ان نبعث بك الى الحجاز واليمن .

قال : اما الحجاز فقد بعثت اليه يزيد بن شجرة فلم يفعل شيئا ، واما اليمن فأنا لهـا .

قال : لو فعل يزيد شيئا لما خطر لنا ان نوجهك اليوم ، تذهب الى المدينة ، ومنها الى مكة ، ثم تأتي اليمن فتصنع ما يطيب لك على ان يبايعنا الناس .

قال : اقتل من اساء وابقي على من اشاء ؟

– اجل ، ونلك ان تجعل صدور الناس ، من انصارعلي ،غمداً لسيفك فنحن لن نسألك عما تفعل .

قال : رضيت ، وسأسير بعد بضعة ايام .

وما لبث حتى خرج من الشام يريد المدينة، فلما قدمها ،فرابوايوب الانصاري عامل علي ، الى علي بالكوفة ، وهو شاعر بأنه عاجز عن قتال بسر. وخلا الجو لابن ابي ارطأة ، ولم يقاتله احد.

فصعد منبر المدينة فنادى عليه : شيخي شيخي عهدته هنا بالامس فـأين هو اليوم ؟ وهو يعني عثمان بن عفان .

ثم قال : والله لولا ما عهد الي معاوية ما تركت بالمدينة صبيا . . !

ثم ارسل الى بني سلمة فقال : والله ما لكم عندي امان حتى تأتوني بجابر بن عبد الله . وجابر هذا من وجوه الناس .

فانطلق الى ام سلمة زوج النبي فقال لها و ماذا ترين ؟ ان ابن ابي ارطـــأة يريد ان ابايع معاوية وهي بيعة ضلالة وقد خشيت ان اقتل .

قالت : ارى ان تبايع فقد امرت ابني عمر وابن زمعة ان يبايعا .

فأتاه جابر فبايع ، ثم عمد الى الشدة ، فهدم منـــازل القوم الذين فروا من المدينة دون ان يبايعوا مولاه . ومكث اياما ثم سار الى مكة . فخاف ابوموسى الاشعري ان يقتله فهرب منه .

وجعل هو يكره الناس ، على البيعة والناس يبايعون خوفا من السيف حتى لم يبق منهم احد . فلما راى ان امره في مكة قد انتهى ، مشى الى اليمن ، وعامل علي عليها ، عبيد الله بن عباس ، شقيق عبد الله . ففعل عبيد الله كما فعل ابو ايوب الانصاري .. اي انه لجأ الى الكوفة . واستخلف على اليمن ، عبد الله بن عبد المدان الحارثي . فأتاه بسر فقتله وقتل ابنه .

ثم اخذ ابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس وكانا بالبادية عنـــد رجل من بني كنانة وطاب له ان يقتلهما ، فقال له الكناني : لماذا تقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ اقتلني معهما . فجرد سيفه ، وجعل يضربه حتى قتله !! ثم جعل يلهو ، بالنظر الى دماء الغلامين تسيل عند قدميه .. ثم أمر بهما فدفنا !

فخرجت نساء بني كنانة يندبن ، وقامت امراة منهن تقول له : قتلت الرجال فعلام تقتل الغلمان ؟ والله ما كانوا يفعلون هذا في الجاهلية والاسلام والله يا ابن ابي ارطاة ، ان سلطانا لا يقوم الا بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير لسلطان سوء ...

وقتل بسر في غزوته ، جماعة من شيعة علي في اليمن . وكان الخبر قد بلـغ عليا . فأرسل جارية بن قدامة السعدي في الفين ، ووهب بن مسعود في الفـين وامرهما بأن يتبعا آثار بسر . فسار جارية حتى اتى نجران ، فقتل من فيها من شيعة عثمان ، وهرب بسر واصحابه منه .

فلحق به جارية الى مكة ، فهرب منه ، فقال عندئذ للقوم : بايعوا امـــير

المؤمنين .

فقالوا : قد هلك امير المؤمنين ... فمن نبايع ؟

بايعوا الحسن ابنه .

فبايعوا مكرهين . ثم رجع حتى أتى المدينة وأبو هريرة يصلي الناس . فلما عرف ان جارية قد أقبل ترك المدينة واستخفى .

فقال جارية : لو وجدته لقتلته ، ثم طلب الى أهل المدينة ان يبايعوا الحسن ففعلوا : ولم يبق الا ان ينصرف الى الكوفة .

وكان علي ينتظر رجوعه ، فلما مثل بين يديه قال له : خبرني كيف قتل ابن أبي ارطاة ، ابني عبيد الله ؟

فنقل اليه ما سمعه من القوم ، فجزع امير المؤمنين جزعاً شديداً ودعا على بسر فقال : اللهم اسلبه دينه وعقله . ففقد بسر بعد ذلك عقله ، فكان يهذي بالسيف ، ويطلبه فيؤتى بسيف من خشب ، ويجعل بين يديه زق منفوخ يضربه به ، ولم يزل كذلك حتى مات .

وذكر ابن الأثير وسواه ، ان عبيد الله ابن عباس دخل على معاوية ، بعد ان استقام له الأمر ، وعنده بسر بن أبي أرطأة ؛ فقال لبسر : وددت ان الارض انبتتني عندك حين قتلت ولدي .

فقال بسر هاك سيفي . .

فاهوى عبيد الله ليتناوله فأخذه معاوية وقال لبسر : أخزاك الله شيخاً قد خرفت ، والله لو تمكن منه لبدأ بي .

قال عبيد الله : « اجل ، ثم ثنيت به .... »

وعند ما رأى المسلمون ، ان الأمر قد اشتد ، بين معاوية وأمير المؤمنين ، سعى عقلاؤهم ليجعلوا هدنة بين الاثنين ، ووضعوا الحرب ، على ان تكون الشام لمعاوية ، والعراق والأقاليم الأخرى ، لعلي ، دون ان يدخل احدهما بلد الآخر غازيا . وتنفس المسلمون الصعداء ، وامسوا احراراً في الرواح والمجيء ، ينشر الأمن ظله في جوهم . ويمد السلام فوقهم رواقه ، والاقدار ، تمشي الى هدفها ، جائرة ، طائشة ، لا ترحم الابرياء ولا تلوي على أحد ...

* * *

في هذه السنة خرج عبدالله بن عباس من البصرة ، ولحق بمكة ، وهو يأبى ان يكون عاملاً لعلي . وسبب خروجه ، انه مر وهو في البصرة ، بأبي الأسود الدؤلي ، ولم يكن من المقربين اليه ، فقال له : لو كنت من البهائم لكنت جملا ، ولو كنت راعياً لما بلغت المرعى ..

فكتب ابو الاسود الى علي : اما بعد فان الله عز وجل جعلك والياً مؤتمناً وقد بلوناك فوجدناك عظيم الامانة ناصحاً للرعية ، تكف نفسك عن دنياهم ولا تأكل اموالهم ولا ترتشي في احكامهم ، وان ابن عمك قد اكل ما تحت يديه بغير علمك ولم يسعني كتمانك رحمك الله فانظر في الأمر واكتب الي برأيك .

فكتب اليه علي : اما بعد ، فمثلك نصح الإمام والامة ، ووالى الحق ، وقد كتبت الى صاحبك فيما كتبت الي .

وكتب الى ابن عباس في ذلك ، فأجابه ابن عباس : اما بعد فان الذي بلغك باطل ، واني ضابط لما تحت يدي وحافظ له فلا تصدق الناس ..

فكتب اليه : خبرني ما اخذت من الجزية ومن اين أخذت ؟

فغضب ابن عباس ، وتناول قلمه فكتب : اما بعد فابعث الى عملك من احببت فاني تارك البصرة والسلام .

ودعا اخوانه ؛ من بني هلال بن عامر ، فاجتمعت معه قيس كلها ؛ فحمل مالا وقال : هذه ارزاقنا اجتمعت .

فتبعه اهل البصرة يريدون استرجاع المال ، فقال بنو قيس : والله لا يوصل اليه وفينا عين تطرف .

فقال صبرة بن شيمان : يا معشر الازد ، ان بني قيس اخواننا وجيراننا واعواننا على العدو ، وان الذي يصيبكم من هذا المال لقليل وهم لكم خير منه فارجعوا . فانصرفوا ، وانتهت منذ ذلك اليوم ؛ ولاية ابن عباس . وكانت الليالي تتمخض ، لتلد حادثا يهتز له الاسلام .

* * *

اقام الخوارج بالكوفة وغيرها ساكتين لاجئين الى الهدوء. على انهم لم يكونوا من اهل الطاعة ، وانما كان يخشون ان يضع أمير المؤمنين سيفه في رقاب البقية الباقية . كانوا مخلصين في الظاهر ، واشراراً خونـــة ، وراء الجدران . انهم لا يحبون احداً ولا يريدون الا ان ينقذوا الاسلام من كبار الامراء ورجال الحكم فيه ! وكلما ذكروا واقعة النهر ، ذكروا اخوانهم الذين قتلهم جيش علي ، وغلت الصدور حقداً وغضباً . اي ان النار كانت تحت الرماد .

وكان بينهم رجال يطيب لهم الموت ، في سبيل المبدأ الذي اعتنقوه . منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي ، والبرك بن عبدالله التميمي ، وعمر بن بكر التميمي السعدي .

وقد اجتمع هؤلاء الثلاثة ، فذكروا قومهم وعابوا عمـــل امرائهم وكانوا يقولون : لا خير في الحياة بعد اخواننا فلو اشترينا انفسنا وقتلنا أئمة الضلال ، وارحنا منهم الاسلام ...

فقال ابن ملجم ، وكان من اهل مصر : انا اكفيكم علياً !

وقال البرك ابن عبدالله : وانا اكفيكم معاوية !

وقال عمرو بن بكر : وانا اقتل ابن العاص .

وتعاهدوا الا يرجع احدهم عن صاحبه الذي اختاره ، حتى يقتله او يموت .

واخذوا سيوفهم فسموها « سقوها السم » وجعلوا ١٧ رمضان ، موعــداً لتنفيذ الحكم الذي اجمعوا عليه . ثم سار كل واحد منهم الى الناحيه التي اختار. والخوارج في الكوفة ، يعرف بعضهم البعض الآخر . فأتاهم ابن ملجم ، ولكنه كتمهم امره ، ولم يشأ ان يبوح به ، الا لمن يثق به من هؤلاء . ثم لقي اصحابا له من تيم الرباب ، وكان علي قد قتل منهم يوم النهر ، بضعة عشر رجلا ، وفيهم امرأة يقال لها قطام ، قتل ابوها واخوها في ذلك اليـــوم وهي آية من آيات الجمال . وكانت تبغض علياً ، ولا تطيق ان يذكر احد اسمه ، وهي حاضرة .

فلما رآها ، فتن بها واحس ان قلبه يخفق على الغرام ، فاراد ان يخطبها فقالت له : لا اتزوجك حتى تشتفي لي .. !

قال : وما تريدين ؟
قالت : ثلاثة آلاف .
– وماذا ايضاً ؟
– وعبدا وقينة ..
– وهل بقي شيء ؟
– بقي ان تقتل علياً .
فقال : لم تذكري قتل علي الا لأنك لا تريدينني .

قالت : بـــلى ، التمس غرته ، فان اصبت شفيت نفسك ونفسي ونفعك العيش معي ، وان قتلت ، فالله خير من الدنيا وما فيها .

قال : اتعاهدينني على الوفاء اذا بحت لك بأمري ؟
– لقد عاهدتك .
– اذن فاعلمي اني لم اجيء الى الكوفة الا من اجل هذه الغاية .
– غاية زواجك ؟
– لا ، ان الزواج لم يخطر لي من قبل ، وانما غايتي قتل علي ، الذي وضع سيفه فينا يوم النهر ، وقبل ذلك اليوم .
– اقسم لي انك ستفعل !
– اقسم بالله الذي لا إله الا هو اني تركت مصر من اجل هذا .

فأطرقت ملياً كأنها تفكر ثم قالت : ولكني لا اريد ان تقذف بنفسك الى الهوة .

قال : أتخوفينني الآن وانت التي طلبت إليّ ان اقتل علياً .

قالت : لقد دفعني الحقد على علي منذ ساعة ، الى ان اقول ما قلت ، واما الان ...

– وماذا حدث الان ؟
– حدث ان عاطفة اخرى غلبت عاطفة الحقد ... هي .. عاطفة ...الحب الذي خفق في هذا الصدر .

فبرقت عيناه لحظة ، ثم تجهم وجهه قائلاً : انها لهجة استهزاء ..

– بل هي كلمة املاها عليّ الهوى فأنا لا ارضى بأن تتصدى لعلي ولو كان في قتله بلوغ المنى !..

– ومعنى ذلك ؟

– معناه اني اخاف ..

فقهقه ضاحكا ثم قال : لقد فهمت .

– ماذا ؟

– تخافين ان ترتجف يدي ساعة القتل فينجو علي ...

– بل اخاف ان تضربه فتتخطفك بعدها السيوف ..

فقال وهو لا يبالي : اقتله وليقتلوني بعده ..

– وهذا ما لا اريده ..

قال : أتأذنين لي ان اتحدث بجلاء .

– افعل .

– ألم تقولي الان « لا اتزوجك حتى تشتفي لي ؟ »

– بلى !

– ألم تطلبي رأس ابن ابي طالب مهراً لك ؟

– بلى ! وكنت قد اقسمت اني لا اتزوج الا الرجل الذي يحمل اليّ هـذا الرأس .

– لم انس ، ولكن الحب الذي فاجأني الساعة حجب بغضي كما قلت .. لا لا ، لم يحجبه ، ولكنه اوحى اليّ بان عاقبة القاتل ، الموت !

– ومع ذلك فأنت تريدين ان يموت علي ..

– نعم !

فقال في نفسه : انها داهية ولكنها حسناء ..

وكان جمالها قد استهواه ..

ثم قال : ان علياً سيموت ، وليس في الكوفة قوة تنقذه من هـذا السيف الذي ترين ..

قالت : لقد رأيت الآن رأيا ..

– ما هو ؟

– هو ان افتش عن رجل يساعدك في ذلك ... ويكون وراءك عندما تجرد السيف ...

– وهل تظنين ان هذا الرجل يدفع عني الموت ؟

– يكفي ان يدافع عنك حتى تفرّ ..

قال : اخشى ان يفضح سري فتسوء العاقبة .

– بل هو يكتمه جميع الناس ولو قتلوه ..

– ومتى أراه ؟

– في هذا الليل .

وبعث الى رجل من قومها يدعى وردان ، فأتاها في تلك الليلة يحجبه الظلام عن العيون .

فقالت له : اتعرف عبد الرحمن بن ملجم ؟

– اسمع انه من اخواننا وهو في مصر .

– ولكنه قدم عند الصباح ، وهذا هو .

فتصافح الرجلان. ثم قالت قطام : وهو لم يترك مصر ، الا لغرض هو غرض الخوارج المقيمين بالكوفة ... ويرجو منك ان تكون عوناً له .

قال : أيريد ان يسعر نار القتال .. ؟

– بل يريد ان يضرب ضربة يهتز لها العراق وفارس ، والحجاز والشام .

– فتمتم قائلاً : يقتل الامام ؟؟

– نعم تكون أنت من ورائه !

فوضع يده علي سيفه قائلاً: ليمت هذا الامام الذي قتل قومنا ونفى اخواننا الى كل قطر .

ولكن أرى ان نكون ثلاثة ..

– وهل تعرف فتى شجاعاً من قومنا يرضى بما ترضيان به ؟

– اعرف رجلاً من بني أشجع اسمه شبيب بن بجرة .

– ويرغب في قتل علي ؟

– لا أعلم ؟
فقال عبد الرحمن : عرفت الرجل ، وهو صديق لي .
– اذن يجب ان تراه الليلة وتخاطبه بالأمر .
– وأين هو ؟
– في الناحية التي تلي المسجد .
فنظر الى قطام كأنه يسألها رأيها ، فقالت : خير لنا ان تراه في منزله فأنا لا أعرفه .
– في هذا الليل ؟
– بل في هذه الساعة وانا بانتظارك .
فنهض عبد الرحمن وهو يقول : سأعود بعد ساعة .
وخرج يتقدمه وردان حتى دخلا بيت شبيب . وكان الرجل جالساً في بهو داره وعنده عم له. فلما رأى الرجلين مد يده الى ابن ملجم قائلاً: مرحباً يا عبد الرحمن .. متى قدمت ؟
في صباح هذا اليوم .
– وأي بلد احسن من الآخر ، مصر ام الكوفة ؟
قال : تجد في مصر ما لا تجده في الكوفة وتجد في الكوفة ما لا تجده في مصر .
– وهل كان محمد بن ابي بكر احب اليك من عمرو بن العاص ؟
– لم يكن لي صحبة مع محمد وليس لي صحبة مع عمرو .
– ولكنك تؤثر احدهما على الآخر ..
قال : اؤثر الرجال الذين يبذلون دنياهم في سبيل الاسلام ...
والتفت الى عم ابن بجرة ، كأنه يخشى ان يبوح بما في صدره وهو حاضر
فقال شبيب لعمه : اتأذن لنا يا عم في الخروج الى ساحة المسجد ؟
قال : افعلوا ما يطيب لكم فأنا ذاهب . وقام فانصرف .
فقال ابن بجرة : يظهر ان عهد امير المؤمنين في مصر كان احب اليك من عهد معاوية .

فخفض صوته قائلاً : ليس في العهدين ما يستحق هذا الحب .!! علي يحكم الرجال بكتاب الله ولا يبالي ومعاوية لا ينظر الا الى مقعد الخلافة ، ولا يعبأ الا بالمجد الذي يمشي اليه في طريق مصبوغ بالدماء .

فسمع ابن بجرة لهجة ثائر فقال : اذن فالرجلان لا يصلحان للامر ..

– لا ، ولا يصلح غير الرجل الذي تختاره الأمة ..

– وهل نسيت ان المسلمين بايعوا علياً ؟

– بايعه الناس والسيف فوق الرؤوس ..

قال : لم يبق الا ان تبايع مصر عمرو بن العاص ، فينتهي كل شيء ...

– ان عمراً يؤثر دنياه على الآخرة ..

فضحك قائلاً : يخيل اليّ ، وانا اصغي الى ما تقول انك تريد ان يكون المسلمون فوضى لا امير لهم ...

– بل اريد ان يتولى امر المسلمين رجل يعمل بكتاب الله .

وسكت قليلاً ثم قال : ألست من الخوارج ؟

– بلى !

– وكيف تدافع عن علي ؟

– لا ادافع عنه بل احارب رجاله اذا طاب لكم ان تلجأوا من جديد الى السيف وابرز انا نفسي الى علي !

– فآنس فيه اللين ، فقال : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟

قال : ماذا ؟

قال : قتل علي !!

ثكلتك امك .. لقد جئت شيئاً غريباً .. كيف تقدر على قتله ؟

– اكمن له في المسجد فاذا خرج الى صلاة الفجر شددنا عليه فقتلناه فان نجونا فقد شفينا انفسنا ، وان قتلنا فالله خير من الدنيا وما فيها ...

قال : ويحك ، لو كان غير علي كان اهون .

– واي شيء يصعب عليك في ذلك ؟

قال : عرفت فضله وبلاءه في الاسلام وما اجدني استلذ قتله وافرح لموته ..

– وكيف استلذ هو قتل اهل النهر ، العباد الصالحين ؟

– كان ذلك في الحرب .

قال : يجوز القتل في المسجد ، كما يجوز في الميدان .

– ولكن علياً اقرب الناس الى رسول الله .

– لا يلومنا رسول الله اذا فعلنا فنحن انما نقتله بمن قتل من اصحابنا في ذلك اليوم ولم يزل يغريه ويعده الوعود حتى حنى راسه راضياً .

فقال له : موعد القتل ١٧ رمضان .

– عند صلاة الفجر ؟

– اجل ويقتل في الساعة نفسها عمرو بن العاص ومعاوية .

– ومن يقتلهما ؟

– يقتل الأول عمرو بن بكر ، ويقتل معاوية البرك بن عبدالله .

قال : وهل رضيت بهذا يا وردان ؟

– ليس هنالك شيء احب اليّ من هذا ..

– وانت باق في الكوفة يا عبد الرحمن حتى يجيء اليوم الذي ذكرت ؟

– نعم وسأحتجب في احد المنازل ولا اظهر في البلد الا عندما تأتي الساعة .

وصافحه قائلاً : اتقسم الان انك ستكون عونا لي على قتل الرجل ؟

– اقسم اني سأفعل .

فانصرف ووردان معه فأتيا المرأة .

وجعل عبد الرحمن يقص عليها حديث ابن بجرة وهي ترتجف غضباً حتى خبرها بوعده ، فابتسمت وجعلت تناجي اباها واخاها قائلة : ان الدم البريء الذي سفكه علي يوم النهر سيكون ناراً عليه .

وكانت تقول لابن ملجم ، في نهارها وليلها : اقتل علياً اكن لك الى الأبد...

* * *

– ١٠٤ –

اقبلت ليلة ١٧ رمضان ، وابن ملجم ووردان في منزل قطام والثلاثة مطرقون لا يقولون كلمة .. وكان الناظر الى وردان ، يرى وجهاً اصفر ، وعينين غائرتين

جامدتين ؛ وجبيناً مكفهراً كتب الخوف عليه سطوره . وكانت قطام ، ترفع نظرها من حين الى آخر ، لتقرأ ملامح الرجلين، وتتبين العزيمة البادية في العيون وقد قرأت الهدوء في ملامح عبد الرحمن ، والاضطراب في ملامح رفيقه ، وبدا لها بوضوح وجلاء ، ان قلب الرجل المرادي ، اشد صلابة من الحديد .

فقالت له وهي تبتسم : انها ساعة رهيبة يا عبد الرحمن ..

قال : لا ابالي بها ولو كان وراءها الموت !

– وفي اي شيء تفكر اذن ؟

– في هذا الرجل الذي ستضطرب الكوفة لقتله .

– وهل مسّت الرحمة قلبك ؟

– لا ، ولكني استعرض في مخيلتي ، هذا الموقف الذي سأقفه عند الفجر ، والسيف في يدي ، وانا انتظر خروج علي الى الصلاة !

– وهـذا معنـاه انك تخاف ان تضرب ضربة واحدة بذلك السيف !

قال : ليس لك ان تتهمي ابن ملجم بما هو بريء منه ،اني لا اعرف الخوف، ولا يخطر لي ان اتراجع عما اهمُّ به ..

– وهذا التفكير ؟

– هذا معناه اني اتصور السدة التي يخرج منها علي وانا متردد في أمرالوقوف عند بابها الخارجي .

– خير لك ان تكن هنالك لتفاجئه بسيفك .

– وأين يقف وردان وابن بجرة ؟

– عن الجانبين .

قال : أرى ان اقف بباب المسجد من الداخل .

قالت : بين السدة والباب بضع خطوات، وقد يخرج القوم وراء عليفيصبح داخل نطاق من الرجال .

ثم قالت :ألق علياًوجهاً لوجه،فاذا اخطأه سيفكلم يخطئه السيفانالاخران. ماذا تقول انت يا وردان ؟

وكان وردان ذاهلا فقال : اما انا فعبد امتثل ما تأمريني به ..

لكنه كان يقول في نفسه : ان الله ينهانا عن ان نقتل بريئاً .
قالت : وصاحبك ابن بجرة ؟
– واما ابن بجرة فعبد يمتثل ما يأمره به عبد الرحمن ..
قالت : يطيب لي ان اراه ، فهو من قوم يقال لهم بنو اشجع وقد يكون شجاعاً .. اين هو الان ؟
– في منزله لا يخرج منه .
– اذهب وقل له ان عبد الرحمن يدعوه اليه .
فخرج الرجل وهو يلعن تلك المرأة التي اوغرت صدره، ودفعته بدهائها الى تلك الهوة البعيدة الغور .
حتى دخل على شبيب فقال له : اين سيفك ؟
فوضع يده على سيفه قائلاً : هذا هو .
قال : امضي في امرك ام ترجع عنه ؟
– اني ماض فيه الى النهاية.
– : لقد دنت ساعة القتل .
– وانا انتظر هذه الساعة لإنقذ الاسلام من الفتنة الدائمة ..
– اذن فاحمل سيفك ، واغلق بابك واتبعني .
– الى اين ؟
الى منزل قريب يقيم به صاحبك .
قال : خير لي ان آوي الى فراشي بضع ساعات .
– ولكن الرجل الذي يهم بقتل امير المؤمنين بعد بضع ساعات لايستسلم الى الكرى ..

فاضطرب ، وخفق قلبه ، ثم لم يلبث حتى استعاد هدوءه ونهض وهو يقول: ان الذي يهم بقتل امير المؤمنين لا يستسلم الى الكرى . ومشى وراءه وعيناه تنظران الى منزله .

فلما انتهى إلى دار قطام ، رأى حسناء فتانة ، ترسل عيناها السحر .. وابن ملجم جالساً بالقرب منها ، على وسادة من الخز ، ونور الغرام يتلألأ على وجهه.

فعرف انها قطام بنت شحنة وكان قد رآها اكثر من مرة .

فسلّم وقال : ها أنذا يا عبد الرحمن .

قال : أتعرف هذه المرأة ؟

– ومن لا يعرف الحسناء التي استهوى جمالها قلوب الناس في الكوفة ؟.. انها قطام من تيم الرباب .

فقالت : اما انا فلم أرك من قبل ، ولم يخطر لي ، ان في القوم الذين خرجوا على علي رجلاً له هذه الجرأة التي حدثني بها عبد الرحمن الان .. اتذكر قتلى النهر من قومك ؟

اذكر ذلك ، واسمي اولئك الأبرياء الذين قتلوا باسمائهم ، ولا يصفو لي العيش الا اذا قتلت علياً بهم !

والتفت الى ابن ملجم قائلاً : يظهر انها تعرف كل شيء .

– اجل ، وهي ترأس اليوم جميع خوارج الكوفة والاخوان المقيمين بمصر ، دون ان يكون فيهم رجلاً يخالفها فيما تسأل :

قال : وانا من هؤلاء ، وليس لها الا ان تأمر فأطيع .

قالت : بارك الله فيك فعبد الرحمن ، لم يغال بما ذكره لي عنك ، والان .. أمستعد انت ؟

– نعم وستكون الضربة الاولى من هذا السيف !

فقالت وهي تضحك : اخشى ان تسبق عبد الرحمن الى قتل علي ؟ فيغضب ، ونحن بحاجة الى رضاه ..

فقال عبد الرحمن : ليمت علي ، وليكن قاتله ابليس فأنا لا ابالي .

باتوا يتحدثون حتى بزغ الفجر ، فهامست عندئذ عبد الرحمن قائلة : لا تنس انك ستكون عند الصباح زوجا لي ..

ودفعته بدلال الى الباب وهي تبتسم له ابتسامة الحب ، فخرج وهو يقول : حسبي وحسبك ايتها الحبيبة ، اني سأنقذ المسلمين ، بعد ساعه ، من الفتنة الطائشة التي تسيل معها الدماء ...

* * *

كان فجر ١٧ رمضــان ، فجراً رهيباً ، حدثت فيه حادثات ثلاث ، لأمير المؤمنين في الكوفة ، ولمعاوية في الشــام ، ورجل آخر في مصر ، هو غير عمرو ابن العاص .

وقد ردّدت العرب اخبار هذه الحادثات في كل قطر ، ونقلتها كتب التاريخ الى الاجيال .

قعد البرك بن عبدالله لمعاوية ، في الرواق الذي ينتهي الى المسجد ويده على قبضة السيف ، والظلام يخفي ملامح وجهه . ودنت ساعة الصلاة ، فخرج معاوية ، الى ذلك الرواق ، على عادته في كل يوم ، ووراءه بعض الامراء ، من انصاره وبني قومه . وقد تعجل في مشيه كأنه كان يفكر في أمر تمنعــه صلاة الفجر من التفكير فيه ..

فخطا البرك بضع خطوات ، وضربه من الوراء ...

فوقع السيف في عجيزته .. ولم تلبث الايدي حتى امتدت اليه ، وانتزع السيف من يده ، فقال معاوية : خذوه الى القصر .

وساعدوه في الرجوع حتى جلس في مقصورته فقال : عليَّ به .

فلما مثل بين يديه قال : ما اسمك ايها الرجل ؟

فأجابه ، وهو هادىء : البرك بن عبدالله .

– ولماذا أردت قتلي ؟

قال : نحن ثلاثة رجــال ، عاهدنا الله على ان نقتل علياً ومعاوية وعمرو بن العاص ! وقد قتل علي في هذه الساعة .

قال : لعل أخاك الذي اراد قتله لم يقدر على ذلك ..

– بل ، فليس مع علي احد من الحراس .

فقال لمن حوله : اقتلوه فليس من الحكمة ان يبقى حيا ...

وبعث الى رجل يقال له الساعدي وكان طبيباً .

فلما تبين جرحه قال : ان ضربتك مسمومة ، فاختر اما ان احمي حديدة

فأضعها موضع السيف وإما ان أسقيك شيئاً لا يولد لك بعده ..

قال : اما النار فلا صبر لي عليها ، واما الولد ، فان في ولديّ يزيد وعبدالله ما تقر به عيني .

فسقاه دواء فبرىء ولم يولد له بعد ذلك .

وأمر عندئذ بأن يكون في القصر وحول القصر حراس لليل ، وأمر الرجال بأن يقوموا على رأسه اذا سجد . وهو اول من فعل ذلك في الاسلام .

وكان عمرو بن بكر ، قد جلس في الساعة نفسها لعمرو بن العاص عند باب المسجد .

على ان عمراً لم يخرج الى الصلاة في ذلك الفجر لألم في بطنـــه وكان قد مرّ بضعة أيام وهو لا يصلي بالناس . وكان خارجة بن ابي حبيبة صــاحب شرطته « مدير البوليس في مصر » فبعث اليه يأمره بان يصلي. وهو من بني عامر بن لؤي. فأتى خارجة المسجد والناس قد وقفوا للصلاة ، فلم يستطع ابن بكر ان يضربه عند الباب ، فدخل مع المصلين وهو يحسبه عمراً .

وقبل ان يبدأ خارجه بصلاته ضربه ذلك الخارجي بسيفه فقتله وقد قام في ذهنه انه قتل عمراً . فقبض عليه القوم ، ثم حملوا قتيلهم الى عمرو وسلموا عليه بالامارة ، وابن بكر يرى ويسمع ، فقال : اي أمير هذا ؟

قالوا عمرو بن العاص .

فاضطرب قائلاً : ومن هو الرجل الذي قتلته ؟

– خارجة بن ابي حبيبة صاحب الشرطة .

فنظر الى ابن العاص وقال : والله يا فاسق ما ظننته غيرك ..

فار تجفت شفتا عمرو وتمتم قائلاً : أردتني واراد الله خارجة ..

ثم قال : اضربوا عنقه وانقذوا الاسلام من شره . فقتلوه وكانت الاقدار كما رأيت عوناً لمعاوية وانصاره وقد نجا هو ، ونجا أمير مصر من الموت .

* * *

كانت احياء الكوفة واسواقها ، في شهر رمضان المبارك ، تغص بالوفود من اهل العراق والحجاز ونجد .. اقبلوا جميعهم يجددون عهد الطاعة لأمير المؤمنين ويعاهدونه على الدفاع عن الخلافة وقد بايعه منهم أربعون الفا على الموت .. وكان قد عول ، رضي الله عنه على الزحف بذلك الجيش الكثير الى الشام ليضرب معاوية الضربة القاضية ، ويسترجع القطر الشامي بقوة السيف . ثم يسير بعد ذلك الى مصر . ولم تكن هنالك قوة تضعف عزيمته ، وتثنيه عن المضي في امره .

رفعت المصاحف في صفين ، وطلب جيش الشام التحكيم ، فأراد وهو الخليفة الصالح الزاهد في الدنيا ان يحقن الدماء .. وأملى عليه وجدانه الطاهر ، وعظمة نفسه ان يجيب اهل الشام وهم من المسلمين ، الى ما طلبوه .. ولكنهم جعلوا الحيلة سلاحاً لهم ، ونكثوا العهد الذي كتبوه .

ولم ينظروا الا الى الخلافة يستولون عليها بالا كاذيب والرياء ، وقد بهر عيونهم نور المجد الباطل ، واستهوت نفوسهم العظمة الجوفاء . وانت قد رأيت ، اي حدث أحدثه التحكيم في صفوف المسلمين . خليفة في الكوفة ، هو ابن عم الرسول وصهره ، ينزه نفسه عن كل قبيح ، وامير في الشام يستحل ما لا يحله الله ، ليسلبه الخلافة ، ويضع يده على كل شيء !

وكيف يصفو العيش لأمير المؤمنين ، ووراءه عدو صلب العود جبار ، هو أدهى رجل في العرب ، وابعد امراء المسلمين صوتا ونظراً ؟

ان الفتنة لا تخمد نارها ، والخلافة في خطر ، فعلى علي ان يمنع هذا الخطر ويخمد تلك النار . على انه لم يكن يطيب له ان ينفرد برأيه . كانت داره في الكوفة ، واسعة رحبة ، تتسع للوفود ورؤساء العشائر ، الذين قدموا يسألونه رأيه ، ويعرضون عليه السيوف . وهم يقضون ليالي رمضان ، في تلك الدار ، يحدثونه بأمر الحرب التي لا بد عنها ، وقد وثقوا بالنصر . وهم الحرب ، ومشاغل الدولة الكثيرة ، لم تكن تمنع امير المؤمنين من الصلاة والصوم .

يؤذن المؤذن ، فيركض القــوم ركضاً الى المسجد ، ليسمعوا كلام ذلك الخطيب العظيم الذي لم يقم في الخلفاء والأمراء ابلغ منه . فاذا انتهى من الصلاة مشى الى داره وبينها وبين المسجد ، باب هو باب السدة يدخل منه . ومشت خلفه وفود الامراء معها بنوه واهله واركان دولته . حتى يجلسوا ويتحدثوا بما يطيب لهم ،وقد تمر الساعات وهو ساكت ، يفكر في هذه الدماء البريئة ، التي ستخضب ارض الشام اذا قدم الشام غازيا . وكان صدره يضيق ، كلما خطر له ان القوم الذين بايعوه على الموت ، سيبذلون انفسهم في سبيله، بل كان يضطرب والبكاء يتردد في صدره ، عندما ينظر ، بقوة التصور الى جثث الناس تدوسها حوافر الخيل في ساحة القتال دفاعاً عنه ..

ولا يتعزى الا اذا رجع الى ايمانه ، وقام في ذهنه ، ان الحرب دفاع عــن الخلافة التي سلمها اليه المسلمون . وانك لتستطيع ان تتبين ، ما في صدر امير المؤمنين من خوف !! اجل ، كان الخوف يملأ قلب علي ! وماذا يخـاف ، وهو الفارس الباسل الشجاع الذي يقتحم الاهوال ، ويستهين بالموت ؟

انه يخاف الله ، ويخشى ان يأتي في خلافته امراً لا يرضيه عزّ وجل .. وذلك شأن الرجال ، اصحاب الخلق النبيل ، والضمائر الطاهرة ..

دخل رمضان ، وهـــو يستقبل الوفود ويبتسم لأنصاره ، ويقضي فروض دينــه صادق العقيدة ، مؤمناً بالله ، ولكن نفسه كانت تحدثه بأن حياته في خطر !!.

وكان يتعشى ليلة عند الحسن ، وليلة عند حسين ، وليلة عند جعفر لا يأكل غير ثلاث لقم ثم يقول : احب ان يأتيني امر الله وانا جائع ..

فلما كانت ليلة ١٧ رمضان ، تعشى القوم جميعهم في منزله ، وهو لا يأكل الا قليلاً والناس ينظرون اليه ، وقد ملأت هيبته النفوس . وكأنه كان عالماً ان امر الله سيأتيه . ولم ينم تلك الليلة الا غراراً ، والموت ، بصورته الرائعة ، ماثل امام عينيه ، ولكنه لم يكن خائفاً .

* * *

بزغ الفجر ، فخرج عبد الرحمن بن ملجم ، وشبيب بن بجرة ، ووردان من منزل قطام بنت شحنة ، يريدون المسجد . وسمعوا وهم ذاهبون أذان السحر ، فتعجلوا في مشيهم حتى يدخلوا المسجد قبل دخول امير المؤمنين . وكان عبد الرحمن ملثما ، تستر جسمه عباءة فضفاضة يخفي تحتها سيفه المسموم ، والاثنان الاخران سافرين ، وسيفاهما داخل الثياب . فلما انتهوا الى باب السدة ، وقف ابن ملجم على بعد بضع خطوات ،ووقف رفيقاه عن الجانبين وقد استند كل منهم الى الجدار . ووردان يضطرب كما يضطرب المحموم ، ويستعين بالجدار كي لا يسقط على الارض .

والصمت الرهيب يسود المسجد فلا يسمع فيه غير همس المجرمين .. ومرت لحظة ، كانت في نظر الثلاثة أطول من عام .

عبد الرحمن وابن بجرة يريدان ان يخرج الامام ليقضيا عليه ، ووردان لا يصدق متى يضرب رفيقاه ضربتيهما ليفرّ . ان الخوف قد استولى عليه وهو يخشى ان يقتله . وكان امير المؤمنين قد خرج من منزله . فأقبل الاوز يصيح في وجهه ...

فطردوهنّ عنه فقال : دعوهنّ فانهن نوائح !!

ومشى على مهل ، وامامه ابن النباح المؤذن ووراءه ولده الحسن وبعض رجال مشورته ؛ حتى انتهى الى باب السدة . ففتح ، ودخل منه ، ثم وقف وجعل ينادي : ايها الناس ، الصلاة .. الصلاة . فوثب ابن بجرة ، من الجانب الذي احتجب وراءه ،وضربه ضربة كان يظن انها ستبري عنقه . ولكن السيف وقع بعضادة الباب . فالتفت علي وابن النباح الى ذلك الجانب ، ومشى الحسن ومن معه الى الامام وهم لا يعلمون اي حادث حدث لأمير المؤمنين .

وبينا بعضهم ينظر الى البعض الآخر ، والعيون تسأل العيون ، .. دنا ابن ملجم من امير المؤمنين ، ورفع سيفه قائلاً : الحكم لله لا لك يا علي .. وأهوى بالسيف ، فأصابت الضربة جبهة الامام وتفجرت الدماء ..

فصاح قائلاً : لا يفوتنكم الرجل . فأخذوه بالأيدي ، وانتزعوا سيفه ، وهو رابط الجأش . ثم أبصروا رجلين يخرجان من الباب وفي يد أحدهما سيف ، وهما وردان وابن بجرة .

فلحق بهما رجل من حضرموت يقال له عويمر ، ولم يلبث حتى أدرك شبيباً فأخذ سيفه وجلس على صدره يهم بان يضربه به .

واقبل الناس في تلك الساعة يطلبون ابن بجرة. فلما رآهم الحضرمي ، وسيف ابن بجرة في يده خاف ان يظن الناس انه هو القاتل فهرب ونجا شبيب متغلغلاً في الصفوف . وكان وردان قد انتهى الى منزله . فأتاه رجل عن أهله فقال له : ماذا جرى في المسجد ؟

قال : ضرب عبدالرحمن بن ملجم امير المؤمنين .

– وقتل عليّ ؟

– ارى انه سيموت .

وكيف جرؤ ابن ملجم على ذلك وأمير المؤمنين بين امرائه وبنيه ؟

– ساعده اثنان ، احدهما شبيب بن بجرة ، والآخر أنا ... ولكني فررت ولم اجرد السيف ولم يخطر لي ان اضرب عليا ..

– ولكنك كنت عوناً للقاتل ...

– أجل !

فانصرف الرجل وهو لا يقول كلمة ..! ثم رجع ومعه سيفه فجعل يضرب به وردان حتى قتله !.. ورددت الكوفة خبر ذلك الحادث الغريب ومشت صفوف أهلها الى منزل خليفتهم يسألون الله ان يشفيه ...

– * * * –

– ١٠٨ –

قال امير المؤمنين ، لجعدة بن هبيرة ، وهو ابن اخته : تقدم وصلّ بالناس.

وقال لمن حوله : خذوا الرجل اليّ بعد الصلاة . ورجع الى منزله ، فعصبوا جبهته ، وجلس في فراشه .

فلما صلىّ الناس حملوا ابن ملجم والقيد في يديه ، حتى دخلوا على عليّ ، وعنده اولاد الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية ، وام كلثوم ، وعبدالله ابن أخيه جعفر وطائفة من أهله واصحابه ، فقال له : اي عدو الله ألم احسن اليك ؟

قال : بلى !

– فما حملك على هذا ؟

قال : شحذت سيفي اربعين صباحاً وسألت الله ان يقتل به شرّ خلقه !!

فقال : لا أراك الا مقتولاً به ولا اراك الا من شرّ خلق الله .

ثم قال: النفس بالنفس ان هلكت فاقتلوه كما قتلني ، وان بقيت رأيت فيه رأيي .. يا بني عبد المطلب لا ألفيتكم تخوضون دماء المسلمين وانتم تقولون قد قتل امير المؤمنين .. ألا لا يقتلن إلا قاتلي .

وقال لابنه الحسن : انظر يا بني ، ان أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلنّ به فاني سمعت رسول الله يقول : اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور .

فقالت ام كلثوم لابن ملجم : لا بأس على أبي يا عدو الله والله مخزيك ..

فأجابها وهو يبتسم هازئاً : فعلى من تبكين ، والله ان سيفي اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة بأهل مصر ما بقي منهم احد ... وهو يعني ان السم سيقتل علياً .

واقبل جندب بن عبدالله في تلك الساعة يقول : يا امير المؤمنين ، ان فقدناك ولا نفقدك أفنبايع الحسن ؟؟

قال : ما آمركم ولا أنهاكم انتم أبصر .

وامر ، فدنا ولداه الحسن والحسين فقال لهما :اوصيكما، بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تبكيا على شيء ، زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، واعينا الضائع ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصراً واعملا بما في كتاب الله ، ولا تأخذ كما في الله لومة لائم ....

ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال: هل حفظت ما اوصيت به اخويك يا بني؟
قال : نعم .
قال : فاني اوصيك بمثله واوصيك بتوقير اخويك العظيم حقهما عليك ولا تقطع امراً دونهما ، ثم قال لهما : اوصيكما به فانــه شقيقكما وابن ابيكما وقــد علمتما ان اباكما يحبه وقال للحسن: اوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكتبت وصيتــه رضي الله عنــــه وجعل يردد : لا إله الا الله ... حتى مات .

فارتسمت الكآبة على الوجوه ، ومد الحزن رواقه فوق الكوفة وقد احس اهلها انهم خسروا بموت امير المؤمنين ركناً قويا من اركان الدين ، وخليفة جباراً في عظمة نفسه ، جباراً في زهده وخلقه ؛ وبطلاً تنحني له رؤوس الابطـال في الميادين .. وخطيباً عظيما لم يقم في ذلك الزمن اعظم منه ، وقائداً شريفاً نبيلاً حمل بعد النبي والخلفاء الثلاثة علم النور والهدى ، يدعو الناس اليه . وقد قام في اذهانهم ان العين لن تقع في جزيرة العرب بعد ذلك على رجل مثل علي . اجل لقد شعر المسلمون في الكوفة ان الحجاز ونجد، والعراق واليمن ستضطرب لتلك الضربة التي ضربها ابن ملجم ، وان مصر والشـام وفيهما الامراء الذين خرجوا عـــن طاعته ، ستبكيان ذلك المسلم العظيم الذي قتـل في المسجد مـن يد خارجي .

ايه عليّ، لقد مر على موتك زهاء ثلاثة عشر جيلاً، وانت ملء اذهان الناس في الشرق والغرب ، وذكرك في كل قلب ، وعظماء العالم في كل زمان ، يعلمون اي رجل انت .

* * *

- ١٠٩ -

غسل الحسن والحسين جثة ابيهما امير المؤمنين ، يساعدهما في ذلك ابن اخيه

عبدالله بن جعفر ، وكفن بثلاثة اثواب . ثم دفن والقلوب تخفق في الصدور واللوعة في العيون .

ولم يرجع القوم حتى أمر الحسين فأحضر ابن ملجم وعيناه تنظران إلى الناس نظرات الاستخفاف ، والابتسامة لا تفارق شفتيه . فهم القوم بأن يفاجئوه بالسيوف . ولكنهم خافوا أن يغضب الحسن ، وهو الذي أمر بإحضاره .وكان أبناء علي مطرقين ، وعلى الخدود آثار الدمع . فرفع الحسن رأسه يريد أن يتكلم

فقال ابن ملجم : لقد أقسمت أن لا أعاهد عهداً إلا وفيت به ،واني عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل علياً ومعاوية أو أموت دونها ، فإن شئت خليت بيني وبين معاوية فلك الله علي إن لم أقتله ثم بقيت ، ان ارجع اليك حتى أضع يدي بيدك .

فقال الحسن : لا والله حتى تعاين النار .

وأومأ إلى الغلمان فجاءوا بنار في وعاء ، والجاني اللعين لا يعبأ بمايسمع ،ولا يبالي بما يراه .

حتى قام الحسين ، ومحمد بن الحنفية ، وعبد الله بن جعفر ، فقالوا : نطلب أن يسلم القاتل الينا لتشتفي أنفسنا منه . وانتظروا جواب الحسن فلم يجب ، وكان سكوته دليلاً على رضاه .

فعمد عبد الله بن جعفر إلى خنجره ، ودنا من القاتل وعيناه تتقدان ،ثم قال له : اصبر يا عدو الله إن كنت قادراً على الصبر .

وقطع بخنجره يده اليمنى وهو ينظر إلى الخنجر يمزق لحمه ولا يطرق له جفن ولا يبدو على وجهه دليل واحد من دلائل الألم .. وقطع الخنجر يده الأخرى وهو لا يقول كلمة .

ثم قطعت رجله اليسرى فلم يجزع ، ولم يلبث عبد الله حتى قطع الاخرى والناس لا يسمعون له صوتاً !! وكأن النفوس لم تشتف بما جرى .فألقى القوم إلى النار ، بقطعة من الحديد ، وصبروا حتى تلظت لهباً .

فتناولها عبد الله وكحل بها عينيه .. فجعل يقول : انك لتكحل عيني عمك

علي بكحول محص... ولم يجزع ..!

وقد رأى الناس ، في تلك اللحظة ، مشهداً غريباً لم يروا مثله من قبـــل . رأوا عينيه تذوبان ، وشفتيه تنفرجان عن ابتسامة لا لون لها . ثم سمعوه يقول: « اقرأ باسم ربك الذي خلق » وهي سورة من سور القرآن حتى أتى إلى آخرها دون أن يتلجلج لسانه او ينسى منها كلمة .

وهموا بعد ذلك بأن يقطعوا لسانه ، فخاف ، فقالوا له : قطعنا يديك ورجليك ، وسملنا عينيك يا عدو الله فلم تخف فلما أردنا ان نقطع لسانك خفت. قال : لست خائفاً ولكني اكره ان اكون في الدنيا فواقاً لا اذكر الله .

فقطعوا لسانه ، ثم احرقوه ، وجلال الموت يبسط جناحيه في فضاء الكوفة والناس يتحدثون بأمر الخلافة ، وقد عولوا أن يبايعوا الحسن بن علي .

* * *

- ١١٠ -

عندما بلغ عائشة قتل علي ، قالت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى | كما قر عيناً بالاياب المسافر

وقال ابن أبي مياس المرادي ، وهو من قوم ابن ملجم :

فنحن ضربنا يا لك الخير حيدراً | أبا حسن مأمومة فتفطرا
ونحن خلفنا ملكه من نظامه | بضربة سيف إذ علا وتجبرا
ونحن كرام في الصباح اعزة | إذا المرء بالموت ارتدى وتأزرا

وقال ايضاً:

ولم ار مهراً ساقه ذو سماحة | كمهر قطام بين عرب ومعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة | وضرب علي بالحسام المصمم
فلا مهر اغلى من علي وإن غلا | ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

وقال ابو الأسود الدؤلي في قتل علي:

الا ابلغ معاوية بن حرب | فلا قرت عيون الشامتينا

افي شهر الصيام فجعتمونا — بخير الناس طراً اجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا — ورحلها، ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها — ومن قرا المثاني والمبينا
إذا استقبلت وجه ابي حسين — رايت البدر راع الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت — بأنك خيرها حسباً ودينا

وقال بكر بن حسان الباهري :

قل لابن ملجم والأقدار غالبة — هدمت للدين والاسلام اركانا
قتلت افضل من يمشي على قدم — واعظم الناس اسلاماً وايمانا
واعلم الناس بالقرآن ثم بما — سن الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره — اضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه، على رغم الحسود له — مكان هرون من موسى بن عمرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر — فقلت سبحان رب العرش سبحانا
اني لأحسبه ما كان من انس — كلا ولكنه قد كان شيطانا
فلا عفا الله عنه سوء فعلته — ولا سقى قبر عمران بن حطانا
يا ضربة من شقي ما اراد بها — الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوي اوردته لظى — وسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصداً بضربته — الا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

وكان عمر علي ثلاثاً وستين سنة وخلافته خمسة اعوام الا ثلاثة اشهر .

* * *

نظرة عامة

الناس يذكرون عليا ، رضي الله عنه ، منذ رافق النبي العربي الكريم إلى ذا اليوم ، كما يذكرون نوابغ الأمم واعاظم الرجال .

وقد كتب المؤرخون اخباره في كتبهم ووضعت الفصول الطويلة ، في سيرة

حياته وذكر اخلاقه وعلمه وبسالته وعدله حتى انك قد لا تجد اليوم كتابا في البلاغة والانشاء الا وفيه للامام العظيم اثر من آثاره التي لا تبلى .

كان زاهداً كما قرات ، وعادلا باسلا لا يتراجع عند الشدة ولا يلوى له عود وكان حراً عزيز النفس ، بعيداً عن الأكاذيب والرياء ، لا يعمد إلى وسيلة فيها ذل ، ولا يبيع آخرته بدنياه .

وكان في اخلاقه ، مثلاً عاليا نقله اهل ذلك الزمان ، إلى ابناء هذا الجيل وسينقله هؤلاء الى الأجيال التي ستجيء فيما يكتبون عنه .

وهو السخي الجواد الكثير الرفق بالرعية يبذل المال كل يوم للمعوزين الذين تكبهم القضاء ، ويوصي عماله بأن يعرفوا حق رعيته فلا يضربوا رجلاً في جباية، ولا يبيعوا للناس رزقا ولاكسوة ...

وذكر المسعودي ، انه لم يلبس في ايامه ثوبا جديدا ، ولا اقتنى ضيعـــة ولا ربعا ، وكان جليلا له تأثيره وهيبتـــه ، حتى ان جلساءه لم يجسروا مرة على ان يبتدئوا بقول .

وقد اعترف له كبار المسلمين ، ووجوه الصحابة والقواد بالشجاعة والجراة وآثروه بالعلم والفضل والاخلاق ، وعظمة النفس ، على جميع اهل النفوذ والجاه ولكن بعضهم كان يتمثل بقول ابن عباس ، وهو ابن عم علي :

« يا امير المؤمنين ، انك رجل شجاع ولست صاحب راي » .

وعلي ، هو الذي امر ابو الاسود الدؤلي بوضع علم النحو ، ووضع له اساسه، وابو الاسود ، هو الذي تولى القضاء في البصرة بأمر امير المؤمنين .

قال ابوالاسود :

« دخلت على امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، فوجدت في يده رقعة ، فقلت : ما هذه يا امير المؤمنين ? قال : اني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء « وهو يعني الاعاجم » فأردت ان اضع شيئا يرجعون اليه ، ثم القى إلي الرقعة وقد كتب فيها :

الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما انبأ عن المسمى، والفعل ما انبيء

به ، والحرف ما افاد معنى ، وقال لي : انح هذا النحو واضف اليه ماوقع اليك واعلم يا ابا الاسود ان الاسماء ثلاثة ، ظاهر ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وانما يتفاضل الناس فيما ليس بظاهر ولا مضمر .

وهو يريد بذلك الاسم المبهم .

وانك لتقرا في كتاب « نهج البلاغة » التي جمعت فيه رسائله واقواله وخطبه ما لا تقرؤه في كتاب آخر .

وهذا معناه ، ان عليا ، كان فيلسوف العرب ، وعالمها الاكبر ، وخطيبها العظيم ، الذي لم تعرف منابر الجزيرة كلها خطيبا مثله .

بعض اقواله

قال رضي الله عنه ، يوم صرع الموت زوجته فاطمة ابنة النبي :

«السلام عليك يا رسول الله . عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي ، الا ان لي في التأسي بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز .

وسدتك في قبرك ، وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، انا لله وانا اليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة واخذت الرهينة .

اما حزني فسرمد ، واما ليلي فمسهد ، الى ان يختار الله لي دارك التي انت بها مقيم وستنبئك ابنتك بتضافر امتك على هضمها فاسألها واستخبرها الحال هذا ولم يطل العهد ولم يخل منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فان انصرف فلا من ملالة وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين » .

وقال يذم اهل البصرة يوم اتبعوا عائشة :

كنتم جند المراة ، واتباع البهيمة « وهو يعني الجمل » رغا فأجبتم وعقر فهربتم ، اخلاقكم دقاق ، وعهدكم شقاق ، ودينكم نفاق ، المقيم بين اظهركم

تهن بذنبه ، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه ، بلادكم انتن بلاد الله تربة قربها من الماء ، وابعدها من السماء ، وبها تسعة اعشار الشر ، كأني أنظر الى مسجدكم هذه قد طبقها الماء حتى ما يرى منا الا شرف المسجد كأنه جؤجؤ طير في لجة بحر .

وكتب يوماً الى معاوية : ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة امر الامة، بغير قدم سابق ولا شرف باسق ، لقد دعوت الى الحرب ، فدع الناس جانباً واخرج اليّ واعفُ الفريقين من القتال . فأنا ابو حسن قاتل جدك وخالك واخيك شدخاً يوم بدر ، وذلك السيف معي ، وبذلك القلب ألقى عدوي .. ما استبدلت ديناً، ولا استحدثت نبياً، واني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين، ودخلتم فيه مكرهين . زعمت انك جئت ثائراً بعثمان ، ولقد علمت حيث وقع دم عثمان فاطلبه من هناك ان كنت طالباً ، فكأني رأيتك تضج من الحرب اذا عضتك ضجيج الجمال بالانتقال ، وكأني بجماعتك ، تدعوني ، جزعا من الضرب المتتابع والقضاء الواقع ، الى كتاب الله ، وهي كافرة جاحدة ، او مبايعة جاحدة ...

حكمة

ونحن نكتب لك الان ، شيئاً من حكمته وامثاله :

السلطان وزعة الله في أرضه .

رسولك ترجمان عقلك ، وكتابك أبلغ ما ينطق عنك .

لكل امرىء في ماله شريكان ، الوارث والحوادث .

ما ظفر من ظفر الاثم به ، والغالب بالشر مغلوب .

عاتب اخاك بالاحسان اليه ، واردد شره بالانعام عليه .

ما اكثر العبر واقلّ الاعتبار .

ما قال الناس لشيء طوبى له ؛ الا وقد خبأ له الدهر يوم سوء .

الناس ابناء الدنيا ، ولا يلام الرجل على حب امه .

مودة الاباء قرابة بين الابناء والقرابة الى المودة أحوج من المودة الى القرابة .
من كتم سره كانت الخيرة بيده .
من شاور الرجال شاركها بعقولها
ترك الذنب أهون من طلب التوبة .
يوم المظلوم على الظالم اشد من يوم الظالم على المظلوم .
لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكا .
حسد الصديق من سقم المودة .
اذا كثرت المقدرة قلّت الشهوة .
من اشرف افعال الكريم غفلته عما يعلم .
كم من اكلة منعت اكلات ...
من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن .
ما اختلفت دعوتان الا كانت احداهما ضلالة .
الطمع رقّ مؤبد .
يا ابن آدم ، كن وصي نفسك في مالك ، واعمل فيه ما تؤثر ان يعمل فيه من بعدك .
احسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم .
من كساه الحياء ثوبه لم يرَ الناس عيبه .
في تقلّب الاحوال علم جواهر الرجال .
افضل الاعمال ما اكرهت نفسك عليه .
المرأة شر كلها ، وشر ما فيها انه لا بدّ منها
آلة الرياسة سعة الصدر .
اذا علمتم فاعملوا ، واذا تيقنتم فاقدموا .
اذا ارذل الله عبداً احظر عليه العلم .

وكتب الى جيش أرسله الى حرب : اجعلوا لكم رقباء في مغاور الجبال ومناكب الهضاب لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن .

اعلموا ان مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم .

اياكم والتفرق ، فاذا نزلتم فانزلوا جميعاً واذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً .
اذا غشيكم الليل فأجعلوا الرماح كفة ولا تذوقوا النوم الا غراراً .
وكانت خلافته خمس سنين الا ثلاثة اشهر وتوفي وهو في الثالثة والستين من العمر .

- * * * -

- ١١١ -

بايع الناس في الكوفة ، بعد قتل علي، ولده الحسن . واول من بايعه ،قيس بن سعد الانصاري . قام فقال : ابسط يدك ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وقتال اعدائك الذين احلوا ما لم يحله الله .

فقال الحسن : على كتاب الله وسنة رسوله فانهما يأتيان على كل شرط . ثم جعل يقول والناس يبايعون : انكم مطيعون ، تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت .

فخاف الناس ، وتهامس الذين يميلون الى مبدأ الخوارج قائلين : ليس الحسن بصاحب لنا ؛ وما يريد الا القتال .

وبلغ الخبر معاوية، فملأت الغبطة نفسه، وكان واثقاً بان الحسن ، لايستطيع ان يثبت في المجال: الذي ثبت لهفيه أبوه عليّ .وخطر له ان يظهر بمظهر جديد. فخرج من دمشق يريد فلسطين، ووراءه طائفة من قواده وأركان حربه ،المخلصين له ، المدافعين عنه

فلما انتهى الى بيت المقدس ، قام اهلها واولئك القواد يدعون الناس الى ان يبايعوه بالخلافة . . فعلوا ذلك باشارة منه ... وكان القوم من قبل ، قد بايعوه في الشام بعد اجتماع الحكمين . وذكر بعضهم ، انهم كانوا يدعونه الامير قبل قتل عليّ ، فلما قتل هذا ، دعي بأمير المؤمنين .

وبذل دهاءه كله في ذلك الزمن ، ليستقلّ بالسلطان ، وينحي آل علي بن ابي طالب ، عن العرش . . بل كان همه ان ينحي بني هاشم عن الحكم ، ويحول بينهم وبين التفكير في الخلافة . . ! ثم لم يلبث حتى تمادى في طمعه، ،أمعن في الجرأة ،

فخطر له ان يجعل الملك لذريته كما هي الحال في دولة الروم وهي بدعة في الاسلام لم تخطر قبله لواحد من الخلفاء الاربعة الذين تقدموه ٠

واي وسيلة يستطيع معها معاوية ان يستأثر بالامر ؟ ان الدهاء اذا لم يرافقه السيف لا يكفيه ... فمن الرأي ان يفاجيء بسيفه ذلك الخليفة الجديد الذي بايعوه في العراق بعد قتل ابيه .. وحسبه ، ان لم تتلاحم السيوف ، انه يهدده بتقويض اركان خلافته .

يزحف بجيشه الى العراق ، ويدعو الحسن الى البراز ، فاذا تردد فهو الخليفة الضعيف الجبان الذي لا يحسَن الاحتفاظ بالملك ؛ واذا برز الى الساحة حاملاً سيفه ، حاربه معاوية في نهاره وليله ، حتى يصرع رجاله واحداً بعد واحد او يستسلم اليه .

ونضجت هذه الفكرة الجريئة في دماغه ، فجعل يمهد اسبابها ، وهو في فلسطين ، وطاف رجاله في الاحياء يندبون الناس للقتال ، والناس يطيعون ، وقد طابت لهم الحرب تحت لواء خليفة الشام العظيم الداهية . ومعاوية ، من اولئك الافراد النوابغ ، الذين يعرفون كيف يستغلون الموقف ، ويمشون في طريق المجد . يخطر له خاطر ، فيبذل الدهاء والمال ، ثم يبذل دماء الرجال ، ليستقيم له ، وهو في كل ذلك لا يتردد ولا يتراجع الى الوراء .. قلب من الحديد ، في مواقف الروع ، وارادة ثابتة لا تلين .. وطموح الى العلياء لم يعرف المؤرخون له حداً .

معاوية ، داهية العرب ..وانها لكلمة حق، تناقلتها العرب في ذلك الزمان، ونقلتها الكتب الى هذا اليوم . حتى ان بني هاشم جميعهم ، وشيعة علي جميعاً ، اعترفوا بدهاء معاوية ، ورحابة صدره ، ونبوغه في السياسة والحلم . كريم جواد عند الحاجة ، لايذكر معه حاتم الطائي ، كبير في مطامعه وعظمة نفسه ، يضع الشدة في موضعها واللين في موضعه ، وشديد المراس بطاش ، اذا اكرهته غايته على البطش وخانه الدهاء . ولكن سيد بني امية ، كان رجل دنيا ؛ كما ذكرنا ، لا رجل دين .

* * *

كان اربعون الفاً من رجال امير المؤمنين علي،قد بايعوه على الموت ، كماقرأت في الجزء السابق . وكان يهمّ ، قبل موته ، بالزحف معهم الى بلاد الشام . فلما قتل وبويع الحسن ، انتهى اليه ان معاوية خرج الى فلسطين ، لأمر لم يعرفه غير رجاله . ثم بلغ الحسن والناس ، في الكوفة ، انه رجع الى دمشق عاصمة ملكه وانه يتهيأ للمسير بجيشه الى العراق ، وهو يريد الحرب .

ومرت خمسة اشهر على خلافة الحسن ، فقيل له : هـــذا معاوية قد أقبل . فأرسل مناديه ينادي :

سيوفكم يا انصار امير المؤمنين فقد زحف اليكم جيش الشام . فلبى الجنود النداء ، ومشوا تحت لوائه .. وفيهم بعض المترددين الذين لا وفاء لهم ولايثبتون على امر .. وذلك كان شأن اهل الكوفة واهل البصرة يظهرون الطاعة ويحملون السيوف ثم يتراجعون وهم في الطريق .. !! ثم يدعون الى الفتنة ، فاذا استعرت نارها ، خرجوا من صفهم إلى صف آخر ، أو اعتزلوا !! وتلك شيمة الجبناءالذين صغرت نفوسهم ، وفسدت اخلاقهم ..

ساروا تحت لواء الحسن ، يريدون لقاء معاوية ، وكان قد نزل بلداً يقال له مسكن . حتى انتهوا الى المدائن ، فجعل الحسن ، عبيدالله بن عبـــاس ، على مقدمته ، في اثني عشر الفاًمن الرجال، وأمره بان يتقدم الجيش فجعل عبيدالله بدوره ، قيس بن سعد بن عبادة الانصاري ، على الطلائع ، وخرج من المدائن ليلقى معاوية ، والحسن في أثره . وقيس بن سعد ، من دهاة الناس ، وابطال العرب .

وكان الحسن ، في ايام خلافة علي ، لا يحب اهل العراق ، بل كان يخافهم لاسباب كثيرة أهمها انهم خانوا اباه ، وترددوا اكثر من مرة، في الطاعة والوفاء له . والخوارج منهم ، وهم الذين رأوا ذلك الرأي في الاسلام ، وخرجوا من الكوفة يوغرون الصدور على علي الذي رضي بالتحكيم . وكان قيس بن سعد ، يكره امارة معاوية ، ولا يطيق ان يتولى ابن ابي سفيان ، امور الاسلام . فلما

انقضت بضعة ايام ؛ على خروجه في الطلائع ، مع عبيدالله بن عبـــاس ، خرج منادٍ ينادي في المدائن : ان قيساً ابن سعد قتل فانفروا ....

وهو خبر لا صحة له ، اراد بعضهم من اصحاب الخلق الفاسد ، ان ينشره في الجيش لغرض له ، ولأمر يريده الله .. فنفر الجيش ، ثم اقبل بعضهم ينهبون متاع البعض الآخر حتى أتواخيمة امير المؤمنين فنهبوا ما فيها ..! وكان تحته بساط فنازعوه اياه !! فرأى الخليفة ابن الخليفة ان الامر قد خرج من يده، وان اولئك الذين بايعوا اباه على الموت، بايعوه بالشفاه .وقام فدخل المقصورة البيضاء في المدائن وكان امير المدائن ، سعد بن مسعود الثقفي ، عم المختار بن ابي عبيد. فقال له المختار ، وهو شاب :

هل لك في الغنى والشرف ؟

قال : وما ذاك ؟

قال : تستأمن بالحسن الى معاوية !

فقال له : عليك لعنة الله .. أثب على ابن بنت رسول الله وأوثقه ؟؟ بئس الرجل انت .

ودخل على الحسن فقال : مرني يا امير المؤمنين بما تشاء .

– وبماذا يأمر امير المؤمنين وقد دبت الفرقة في الصفوف . دعني انظر في الامر من جميع نواحيه .

فانصرف ، فكتب الحسن الى معاوية ، كتاباً يسأله فيه ان يعطيه ما في بيت مال الكوفة ، ومبلغه خمسة الاف الف « خمسة ملايين » وخراج دارابجرد من بلاد فارس ، وان لا يشتم علياً ، وجاء في آخر كتابه : « ان انت اعطيتني هذا فأنا سميع ومطيع وعليك ان تفي لي بـه . وبعث اليــــه بالكتاب والناس لا يعلمون .

ثم دعا أخاه الحسين ، وابن عمه عبد الله بن جعفر وقال لهما : لقد راسلت معاوية في الصلح !

فقال الحسين : انشدك الله ان لا تصدق أحدوثة معاوية وتكذب احدوثة أبيك .

قال : اسكت فانا اعلم بالامر منك .

وكان معاوية ، من ناحيته ، قد ارسل الى الحسن ، عبدالله بن عامر ، وعبد الرحمن بن سمرة ، ومعهما صحيفة بيضاء عليها خاتمه ، وكتب اليه : اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت اسفلها ما شئت .. وكان ذلك قبل وصول كتاب الحسن اليه .

فلما مثل الاثنان بين يدي الحسن اشترط اضعاف الشروط التي كتبها الى معاوية ولكن معاوية كان قد احتفظ بكتابه ، ولم يجبه الى الكف عن شتم علي .

فطلب الحسن ان لا يشتم وهو يسمع ، فأجابه الى ذلك ، ولكنه لم يفِ له به ..

وخطب الحسن في الناس قائلا : «انا والله ما يثنينا عن اهل الشام شك ولا ندم ، وانما كنا نقاتلهم بالسلامة والصبر فأمست السلامة عداوة والصبر جزعاً ، سرتم الى صفين ودينكم امام دنياكم ، ولكنكم أصبحتم اليوم ودنياكم امام دينكم ، وانكم اليوم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهروان تطلبون بثاره... الا وان معاوية دعانا الى امر ليس فيه عز ، فان أردتم الموت رددناه عليه ، وحاكمناه الى الله عز وجل بظبا السيوف ، وان أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا..»

فناداه الناس من كل جانب : البقية ، البقية ، وامض الصلح ..

فلما عوّل على تسليم الامر الى معاوية ، خطب ثانية فقال : ايها الناس ، انما نحن امراؤكم واهل بيت نبيكم الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .. وجعل يعيدها حتى لم يبقَ رجل الا بكى .

وخرجت الرسل بعد ذلك تحمل الخبر الى معاوية ، فأقبل معاوية مع جيش الشام والتقى الاميران امير المؤمنين الهاشمي وامير الشام الاموي وتم الصلح . ثم سلم ابن علي الامر الى ابن ابي سفيان .

وكانت خلافة الحسن ، على قول بعضم ، خمسة اشهر وبضعة عشر يوماً ، وستة أشهر وبضعة ايام على قول البعض الاخر . وهنالك من يقول انها كانت سبعة اشهر وبضعة ايام ؛ وان التسليم الى معاوية جرى في شهر جمادى الاولى من السنة الحادية والاربعين .

ورأى معاوية ان يتعجل في امره ، فسأل الحسن ان يبايعه على مرأى من القوم ، ففعل ، ومشى امير المؤمنين الجديد ، الى الكوفة فبايعه الناس .

ثم بدأ الدهـاء .. فقال معاوية للحسن : وقيس بن سعد الذي جعلتـه على الطلائع ؟

قال : يبايع .

وكتب اليه يأمره بالدخول في طاعة معاوية .

فقام قيس في الناس فقال : ايها الناس، اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة او القتال مع غير امـام ، فقال بعضهم : بل نختار الدخول في طاعـة امام ضلالة .. وبايعوا معاوية .

فانصرف قيس فيمن تبعه من القوم ، وقد عاهدوه على قتال معاوية ، حتى يشترط لشيعة علي ، على دمائهم واموالهم وما اصابوه في الفتنة .

فلما انتهى الخبر الى معاوية قال : سننظر في امره ، في وقت آخر ، ثم قال لعمرو بن العاص ، وهو معه : اترون ان نبقى في الكوفة ؟

قال : نبقى حتى يخرج منها الحسن واهل بيته وانا ارى ان تخطب اليوم في الناس ثم تأمر الحسن ان يخطب بعدك ..

– لماذا ؟

– ليرى القوم انه عاجز عن الخطابة .

فخطب معاوية ثم امر الحسن بان يفعل مثلما فعل .

فقام ذلك الخليفة المنكود الحظ فحمد الله ثم قال : ايها الناس ، ان الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وان لهذا الامر مدة ، والدنيا دول وان الله قال لنبيه : « ولعله فتنة لكم ومتاع الى حين . »

فقال له معاوية : اجلس .

وحقدها على عمرو بن العاص وكان يقول له : هذا من رأيك .

ولم يلبث الحسن حتى رحل الى المدينة مع جميع الذين ينتمون اليه ، وقام الناس حوله يذكرون اباه ويبكون . وخطر لأحدهم ساعة الرحيل ، ان يقول له : ما حملك على ما فعلت ؟

قال : كرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفة لا يثق بهم أحد أبداً إلا غلب .
ليس فيهم واحد يوافق آخر في رأي انهم مختلفون لا نية لهم في خير وشر ،
لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً ، فليت شعري لمن يصلحون بعدي والكوفة
أسرع البلاد خراباً ؟

وبعد خروجه من الكوفة ، لقيه رجل فقال : يا مسوّد وجوه المسلمين ...
فقال : لا تعذلني فان رسول الله رأى في المنام بني امية ينزون على منبره
رجلاً فرجلاً فساءه ذلك ، فانزل الله عزّ وجلّ : «انا اعطيناك الكوثر» ، وهو
نهر في الجنة و «انا أنزلناه في ليلة القدر» الى قوله تعالى :
« خير من ألف شهر » يملكها بعدك بنو امية .

وخلا الجو لمعاوية ، فكتب الى قيس بن سعد يدعوه الى الطاعة ، وبعث اليه
بصحيفة بيضاء عليها خاتمة ليكتب فيها ما يشاء . وكذلك فعل الداهية مع
الحسن .

فقال له عمرو بن العاص : خير لك ان تقاتل الرجل .

قال : على رسلك ، فانا لا نقتلهم حتى يقتلوا مثل عددهم من اهل الشام
وليس في العيش خير بعد ذلك .. اني والله لا اقاتله ابداً حتى لا اجد بداً
من قتاله ..

فلما انتهى كتابه الى قيس ، اشترط له ولشيعة علي الامان ، على ما اصابوا
من الدماء والاموال ولكنه لم يسأل معاوية ان يعطيه مالاً . وتلك شيمة النفس
الأبية التي لا يحطها القدر ، وان جار ، عن مواقف العز .

فاعطاه معاوية ما سأل ، دون ان يتردّد في الأمر ، وكان يقول لمن حوله
من قواد وانصار : ان قيساً يساوي الفاً من الرجال .

ودخل قيس ومن معه في الطاعة ، وكان القوم في ذلك الزمن ، يعدون
قيساً ، ومعاوية وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وعبدالله بن بديل الخزاعي
دهاة العرب ، وذوي الرأي . وقيس وابن بديل من انصار علي ، اما المغيرة
فقد كان معتزلاً بالطائف .

على ان معاوية ، لم يكن في نظر الوجوه من الصحابة والانصار ، اميراً

للمؤمنين ، بل كان ملكاً ، بدليل ما قاله له سعد بن أبي وقاص .

دخل عليه يوماً فقال : السلام عليك ايها الملك ! فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت : يا أمير المؤمنين . قال : أتقولها جذلان ضاحكاً ؟ والله ما احب اني وليتها بما وليتها به ..

* * *

- ١١٣ -

كان فروة بن نوفل الاشجعي ، وهو من الخوارج ، قد اعتزل حرب علي ، ولجأ مع خمسمائة من الرجال ، الى شهر زور . فلما قتل علي . وسلم الحسن الامر الى معاوية قال لمن معه: لقد جاء الان ما لا شك فيه فسيروا الى معاوية فجاهدوه. فأقبلوا وعليهم فروة ، حتى نزلوا النخيلة وهي عند الكوفة .

وكان الحسن قد خرج يريد المدينة ، كما قرأت ، فكتب اليه معاوية يدعوه الا قتال القوم . وقد اتاه رسوله وهو قريب من القادسية . فكتب اليه يقول : لو آثرت ان اقاتل احداً من اهل القبلة لبدأت بقتالك .. اني تركتك لصلاح الامة وحقن دمائها . فبعث اليهم معاوية بطائفة من اهل الشام .ولكن الخوارج هزموا القوم ، فرجعوا الى الكوفة والذعر يملأ القلوب .

فدعا معاوية وجوه الكوفة فقال : والله لا امان لكم عندي حتى تقاتلوهم. فخرجوا يريدون القتال ، ووقعت العين على العين .

فقالت الخوارج: أليس معاوية عدونا وعدوكم، دعونا حتى نقاتله فان اصبناه كفيناكم هذا العدو وان اصابنا كفيتمونا .

قالوا : لا بد لنا من الحرب فمعاوية لا يلين .

فأخذ بنو اشجع صاحبهم فروة فحادثوه ونصحوا له فلم يرجع. فحملوه قهراً وادخلوه الكوفة . فجعلت البقية من الخوارج ، عبدالله بن ابي الحوساء ، وهو من طيء ، اميراً عليها ، واشتعلت النار . فقتل ابن ابي الحوساء وتفرق رجاله، ثم ولوا حوثرة بن وداع بن مسعود الاسدي ودعوه الى القتال . وكان ابو حوثرة

في الكوفة ، وهو شيخ كبير ، وعنده حفيده ابن حوثرة ، وهو غلام صغير .

فقال معاوية للشيخ : اخرج الى ابنك فعله يرق اذا رآك ويترك القتال . فخرج اليه وحدثه بالامر فأبى ان يغمد السيف ، فقال له : الا اجيئك بابنك فلعلك اذا رأيته ،كرهت فراقه ؟

قال : انا الى طعنة من يد كافر برمح اتقلب فيه ساعة اشوق مني إلى ابني !.

فرجع ابوه فخبر معاوية ، فسير اليه عبدالله بن عوف الاحمر في الفين ؛ وخرج ابو حوثرة معه ، فلما انتهو الى الميدان، دعا أبو حوثرة ابنه الى البراز..

فقال : يا ابت ، لك في غيري سعة... وركض فرسه فبارز عبدالله .فطعنه عبدالله فقتله ثم قتل اصحابه لم يبق منهم غير خمسين رجلاً دخلوا الكوفة استخفوا في المنازل . وبينا في مجلسه ، وقد نقلوا اليه اخبار الظفر ، دخل رجل يستأذن على امير المؤمنين .. فإذن له معاوية قائلاً : من انت ؟

قال : شبيب بن بجرة !

فساد الصمت، وحبست الانفاس .

ولكن معاوية لم يفطن لاسمه ، فقال : ومن هم قومك ؟

– بنو اشجع وانا وابن ملجم قتلنا عليا ..

فوثب الخليفة من مجلسه مذعوراً حتى دخل منزله ثم بعث الى بني أشجع يقول لهم: لئن رأيت شبيباً مرة ثانيةاو بلغنى انه ببابي لأقتلنكم جميعاً ..اخرجوا من بلدكم .. ولكنهم لم يستطيعوا ان يقبضوا عليه ليخرجوه ، فقد كان يخرج كلما جنّ الليل فلا يلقى احداً الا قتله .

حتى ضجت الكوفة ، وطلبته الخيل اكثر من مرة فلم يقفوا له على اثر .

فأوصى معاوية رجاله بان يكونوا جيعهم عيونا عليه ،ثم ولى عبدالله بن عمرو بن العاص ، امر الكوفة . فدخل عليه المغيرة بن شعبة فقال : أي شيء اتى بك يا ابن شعبة ؟

– أتيت اسأل امير المؤمنين أن ينظر في امر الكوفة .

قال : من اي وجه ؟

- لقد جعلت عبدالله بن عمرو اميراً على الكوفة وليس هذا من حسن الرأي في سياسة الملك .

فابتسم قائلاً : هذا معناه انك اشتهيت الولاية .

قال : قضيت معظم ايامي اميراً فليس بي شهوة الى ما ذكرت ، ولكني كرهت ان تقذف بنفسك الى مواقف الخطر وانت الداهية التي تسترشد الرجال برأيك .

- وكيف ذلك ؟

-استعملت عمرو بن العاص على مصر ، وولده عبدالله على الكوفة فأنت في هذا بين نابي الاسد ..

فأطرق ملياً ثم قال : اصبت وكنت انا المخطىء

ثم قال : لقد عزلت عبدالله ووليتك .

فانصرف عبدالله بن عمرو فخبر أباه ، فاتى عمرو فدخل على معاوية فقال : ماذا صنعت يا امير المؤمنين وليت المغيرة امر الخراج ؟

قال : اجل !

- ولكنه سيغتال المال ولا تستطيع ان تأخذه منه .. أستعمل على الخراج رجلاً يخافك ويتقيك .

قال : اصبت . وبعث اليه يعزله عن الخراج ويستعمله على الصلاة . فلما انتهى اليه الامر ، بلغه في الوقت نفسه ، ان شبيباً ابن بجرة برز الى الساحة في موضع قريب من الكوفة يقال له الطف . فأرسل اليه خيلاً عليها خالد بن عرفط فقتله وقتل اصحابه . وكان ذلك في السنة الحادية والاربعين .

* * *

- ١١٤ -

عندما صالح الحسن بن علي معاوية ، وثب رجل يدعى حمران بن ابان على البصرة فأخذها . وكان زياد ابن ابيه على فارس ، وقد ارسله اليها علي . فدعا

..وية بسر بن ابي أرطاة فقال له : لقد جعلتك اميراً على البصرة ، فاذا اتيتها ..تم علياً واقتل بني زياد .

فلما قدم البصرة ، خطب على منبرها وشتم علياً ثم قال : من يعلم اني صادق ..صدقني او كاذب فليكذبني .

فقال ابو بكرة ؛ وهو شقيق زياد لأمه : اللهم انا لا نعلمك الاّ كاذبا . فأمر .. يقبضوا عليه. فقام ابو لؤلؤة الضبي فمنعه، وللاثنان منزلة في البصرة .فرأى .. ان يتناسى امره ، واقام بالبصرة ينتظر امر معاوية .

فأرسل معاوية الى زياد : ان في يدك مالا من مال الله فأبعث ما عندك منه.

فكتب اليه زياد : لم يبق عندي ، ولقد صرفت ما كان عندي في وجهه ..تودعت بعضه لنـازلة ان نزلت ، وحملت ما فضل الى امير المؤمنين رحمة ..له عليه .

فأجابه قائلاً : نأمرك بالمجيء الينا لننظر فيما وليت ، فان استقام بيننا الامر ..عت الى بلدك فامتنع زياد في فارس ولم يعبأ به . وكان له بالبصرة ثلاثة من ..يه هم عبد الرحمن وعبيد الله وعباد ، فأخذهم ابن ابي ارطاة وكتب اليه : ان لم ..تثل امر امير المؤمنين قتلت بنيك ..

فكتب اليه : لست تاركاً مكاني حتى يحكم الله بيني وبين صاحبك وان قتلت ..ني فالمصير الى الله ومن ورائنا الحساب وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون. ..عول بسر على قتلهم . فتصدى له ابو بكرة فقال :اخذت ابناء اخي بغير ذنب ..يس عليهم ولا على ابيهم سبيل ؟

قال : وكيف ذلك ؟

قال : صالح الحسن معاوية على ما اصاب اصحاب علي حيث كانوا .

فأصرّ على القتل ، فاستمهله اياماً حتى يأتيه بكتاب من معاوية . ثم ركب ابو بكرة الى الكوفة. فلما دخل على معاوية قال له والمجلس يغص بوجوه الناس: .. معاوية ، ان الناس لم يعطوك البيعة على قتل الاطفال ...

قال : وما ذاك ؟

قال : ابن ابي ارطاة يريد قتل ابناء اخي زياد .

فكتب اليه يأمره بان يكف عنهم ، وحمل ابو بكرة كتـابه راجعاً حتى انتهى الى البصرة في اليوم الذي جعله بسر موعداً للقتل. وكان القوم قد اجتمعوا ليمتعوا العيون بذلك المشهد الغريب الذي تسيل فيه دمـاء الاطفال الابرياء . فنزل ابو بكرة عن فرسه وكبرّ وكبرّ بعض الناس . ثم أقبل يسعى على رجليه فادرك بسراً قبل ان يقتلهم . فدفع اليه الكتاب ، فأطلقهم .

وكان معاوية ، قد كتب الى زياد ، يتهدّده بعد قتل علي . فقام زياد خطيباً فقال : العجب من ابن آكلة الاكباد ورئيس الاحزاب ، يتهدّدني وبيني وبينه الحسن بن علي في سبعين الفاً واضعي سيوفهم على عواتقهم ؟ اما والله لئن اتاني ليجدني أحمر ضراباً بالسيف .

وقبل ان تنتهي السنة الحادية والأربعون ، خطر لمعاوية ان يعزل ابن ابي ارطاة عن الولاية ، ويوليّ عتبة بن ابي سفيان . وذلك لانه كان يخاف ان يوقد بسر في البصرة نار الفتنة . فأتاه عبدالله بن عامر فقـــال : بلغني انك تريد ان تولي عتبة .

قال : هذا ما خطر لي .

قال : ان لي بالبصرة ودائع واموالاً ، فان لم تولّني انصرفت ...

فرأى من الحكمة ، وقد بايعه الحسن ووجوه الناس ، ان يخمد نار الطمع التي تتأجج في صدور اصحابه ، فولاه . ورجع الى دمشق وقد دخلت السنة الثانية والأربعون ..

— ✲ ✲ ✲

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب

- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين ٢٠ ل.ل.